

المكتبات في المدينة المنورة في العصر المملوكي

إعداد

د. آمنة بنت حسين محمد علي جلال

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

قسم التاريخ والحضارة

جامعة أم القرى

المكتبات في المدينة المنورة في العصر المملوكي

ملخص البحث:

تتضح أهمية الكتب ودورها الذي لعبته في إثراء الحركة العلمية في العصر المملوكي عن طريق إنشاء خزائن الكتب التي تحتوي على الكثير من الكتب في مختلف العلوم والفنون، وما لها من أهمية في تعليم أجيال الأمة الإسلامية، كما كان لها دور في تنوع المعرفة وتطورها من قبل المدرسين والدارسين، كما ساهم الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء الأجلاء ممن اشتغل بمعاينة الكتب ونسخها واختبارها في إثراء الحياة العلمية، وبذلك يتضح مدى اهتمام علماء المسلمين وأمراءهم وسلاطينهم بتوفير خزائن الكتب وما تحتويه من كتب نفيسة في مختلف فنون العلم؛ ولذلك خصصت الأوقاف الكثيرة التي تدر الأموال لاستمرار هذه المكتبات على أداء دورها ورسالتها لمنسوبي هذه المؤسسات التعليمية من أساتذة وطلبة ومجاورين ووافدين، كما أدرك القائمون على هذه المكتبات أهمية المكتبة وأثرها في حياة العلماء وطلبة العلم، كما أن المكتبات كانت مناخا خصبا للكثير من المؤلفين لتأليف كتبهم.

**Libraries in Madina Munawwara
During the Mamlouki Era**

648-923H.

By:

Dr. Amna Husain Muhammad Ali Jalal

**Associate Professor of Islamic History
Department of History and Islamic Civilization
Umm Al-Qura University**

This paper shows the important role that books have played in enriching the scientific movement during the Mamlouki Era, by establishing book-stores that contain innumerable books in various sciences and arts. It contributed greatly to the education of Muslim generations, learners as well as educators. A lot of revered scientists, Mullahs, and men of letters whose major concern was investigating copying, and testing books for their value in developing and enhancing scientific life, which reflects the interest of Muslim scholars, princes, and Sultans, by providing libraries that have precious books in various fields of study. Therefore, the outcome of the prolific, fruitful endowments was devoted to ensure the continuity of these libraries accomplishing its mission towards its people, whether scholars or students, neighbors or newcomer. The people in charge have also realized the impact of these libraries on writers by providing the right environment for them to write their books

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

ليس من شك أن مكتبات الحجاز بوجه عام، والمدينة المنورة بوجه خاص تشكل جانباً له أهميته في تاريخ المكتبات الإسلامية في العصور الوسطى وبخاصة إذا ما وضعنا في أذهاننا ما قاله بعض الباحثين من أبناء الغرب الأوروبي أمثال "طومبسون" "Thompson" في كتابه عن المكتبات في العصور الوسطى من أن الشرق الإسلامي قد تخرب وأنهار بسبب غزوات المغول في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي⁽¹⁾، كما أن المغول قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ/1258م والتي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون ببغداد الغنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها، فلما حلت النكبة ببغداد أصيبت حضارتها بالضرر البالغ وأحرقت مكتباتها وخربت معاهدها ومدارسها، وكان حقاً جناية كبيرة على الحضارة والثقافة بوجه عام والمكتبات بوجه خاص⁽²⁾.

وفي عام 658 هـ/1259م كانت موقعة عين جالوت حيث التقى جيش المغول بجيوش المماليك الذين كتب الله لهم النصر المبين على أعدائهم، وانهمزم المغول شر هزيمة منكرة⁽³⁾، الأمر الذي لاشك فيه أن جعلت سلطنة القوة الأساسية في الشرق الأدنى حيث دفعت الخطر المغولي ثم الخطر الصليبي الذي كان جاشماً على أرض الشام وطرده عام 691هـ/1296م، كما عملت على المحافظة على التراث العربي المجيد والحضارة الإسلامية حيث اهتم كثير من سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم من رجال ذلك العصر الممتازين في ثقافتهم والمشهورين بحب الخير بالكتب وفنونها والمكتبات وإدارتها⁽⁴⁾، كما تحدثت عن بعض كتب الفقهاء المعاصرين لهذه الفترة عن الكتب باعتبارها آلة العلم وما يجب عمله فيما يتعلق بتصحيحها وضبطها وحملها وترتيبها وشرائها وإعارتها ونسخها وغير ذلك من أمور تدل دلالة واضحة على أنه كانت هناك نهضة مكتبية علمية عظيمة الشأن⁽⁵⁾. ولقد حدد

المعلمون لحزنة هذه المكتبات وأمنائها حدودا يسيرون عليها للمحافظة على ما تحت أيديهم من الكتب وتجليدها وترميمها وتقديمها للمستعيرين، وشروط الإعارة لمن يستحقونها دون غيرهم⁽⁶⁾.

ومن يدرس عصر سلاطين المماليك يلاحظ أنه تميز بنشاط وازدهار الحياة العلمية، كما يلاحظ أن الركن الأول في النشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات، فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المؤسسات الثقافية المتنوعة أن تؤدي مهمتها ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم. لذلك لا عجب إذا شهد عصر سلاطين المماليك نشاطا منقطع النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية.

وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية⁽⁷⁾، كما زدوا جميع المؤسسات التعليمية التي تنسب إليهم في معظم المدن التي خضعت لهم في مصر والشام والحجاز بمكتبات في مكة المكرمة والمدينة المنورة مظهر أساسي من مظاهر الحياة الروحية فيهما⁽⁸⁾.

يضاف إلى هذا أن المكتبات في العصر المملوكي ارتبطت أشد الارتباط بالتعليم وفلسفته، تلك الفلسفة التي جعلت من المكتبات محورا للنشاط التعليمي بلى للتعلم كذلك وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها والفعل مما تحويه من مادة علمية ثينة عظيمة القدر. إذ تذكر إحدى وثائق العصر المملوكي أن مهمة الأستاذ هي " أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف " وفي وثيقة أخرى جاء فيها ما نصه: "... يبين الشيخ لكل منهم ما يشكل عليه فهمه من كشف غامض وحل مشكل ويسهل عليه ما عسر فهمه له ويسلك بهم مسلك الرفادة والتعليم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف " ومن هذه النصين وغيرهما يتضح لنا أهمية المكتبات والدور الكبير الذي قامت به في تحصيل العلم⁽⁹⁾، بل إنها ساهمت مساهمة كبيرة في خلق أجيال من العلماء في العصر المملوكي، ووفرت لهم الكتب والمراجع النفيسة في وقت لم تعرف فيه الطباعة الحديثة وكانت الوسيلة الوحيدة للحصول على نسخة من كتاب هي إعادة نسخة بخط اليد، مما جعل الكتاب نادر الوجود، وإذا

وجد فإنه يكون باهظ الثمن، ومن هنا تبدو أهمية المكتبات في تيسير الحصول على الكتاب سواء للاطلاع أو النسخ أو المقابلة⁽¹⁰⁾.

وهكذا كانت المكتبات المملوكية بكتبها الكثيرة وسيلة جيدة ووحده وظيفية لغايات تعليمية، وقوة واقعة وإيجابية في حياة المثقفين، وأدت وظيفتها على أتم وأكمل وجه لتحقيق فلسفة التعليم بشكل لا يمكن إنكاره، فهي إحدى الوسائل الهامة التي عملت على تقريب الأفكار وإيجاد التجانس والتعاطف الاجتماعي بين الطلاب المسلمين والعرب الوافدين من مختلف بقاع الأرض، ومدت لهم يد العون والمساعدة لأن المكتبات حين أنشئت كان هدفها نشر العلم والخير والحق وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل ودام خير الأمة الإسلامية بكثرة علمائها⁽¹¹⁾ وحفظ التراث العربي والحضارة الإسلامية وكانت محورا للتعليم الرسمي والحر على السواء في أثناء الدروس وبعدها عن طريق القراءة والبحث والدراسة، والواقع أن نشاط المكتبات المملوكية كان واسعا وعظيما رغم قلة عدد المتعلمين بالمقارنة إلى عصرنا الحالي وعدم معرفة الطباعة في ذلك العصر، إذ كانت الكتب كلها مخطوطة والكثير منها نادر.

وإذا كان سلاطين المماليك قد اهتموا بعمارة القلاع والحصون والأبراج الحربية وشحنها بالذخيرة والعتاد، فإن المكتبات أو خزانات الكتب حسب مصطلح ذلك العصر - في مدارسهم وزواياهم ومساجدهم ودورهم كانت تزخر بالكتب والمخطوطات والمصاحف والربعات الشريفة، ومما لا شك فيه إن أي مؤسسة تعليمية في العصر المملوكي بدون مكتبة " خزانة كتب " كنت أشبه بقلعة حربية بدون ذخيرة⁽¹²⁾. ولا جدال في أن ذلك العصر المملوكي كان عصر النهضة المكتبية في تاريخ الوطن العربي وتشهد بذلك كثرة المكتبات التي زخرت بها المساجد والمدارس والربط والزوايا وبيوت العلماء في كل المدن التي خضعت للحكم المملوكي بوجه عام والمدينة المنورة بوجه خاص، وبالتالي كان عصر التأليف العلمي الذي أمدنا بموسوعات وذخائر هي أجل ما أنتج العقل الإسلامي على طول التاريخ وعرضه⁽¹³⁾.

وفي الحقيقة أن مكتبات الحجاز بوجه عام والمدينة المنورة بوجه خاص كانت قد وصلت إلى درجة مثلى في ذلك العصر بما حوته من ذخائر الكتب ونفائسها بحيث كان أبناء البلاد المجاورة يقصدونها للحصول منها على تلك الذخائر وإن كانت كثير من المصادر التي بين أيدينا قد ضنت علينا بما يمكننا من جلاء هذه النقطة إلا أنه قد وردت إشارة في مصر قريب من هذا العصر ترجح ما أشرنا إليه وهي أنه في عام 900هـ/1494م كلف حاكم اليمن السلطان عامر أحد أتباعه عند توجهه إلى بلاد الحجاز أن يشتري له كتاب " بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ/1391م) " في فقه الشافعية وهو أربعة وعشرون مجلدا (14) وفي موضع آخر يشير نفس المصدر إلى أن مكتبات الحجاز بوجه عام كانت تحوي من الكتب أنفسها للكثير من مشاهير علماء المسلمين في شتى الأقطار، وأنه كان يقصدها الناس في مواسم الحج للحصول على هذه الذخائر، ففي شهر صفر من نفس العام رجع أحد أعيان تجار اليمن من بلاد الحجاز إلى مدينة زبيد ومعه كتاب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" للعلامة ابن حجر رحمه الله، وهو أول دخوله إلى الديار اليمنية وهو من أعجب شروح الصحيح، بالإضافة إلى غير ذلك من مؤلفات مشاهير ذلك العصر (15).

وفي هذا دليل كاف على أن بلاد الحجاز وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة كانتا من أم المراكز الثقافية التي يتجمع فيها حشد كبير من مؤلفات مشاهير علماء ذلك العصر، بل إن المدينة المنورة في العصر المملوكي قد شهدت بعضا من أولئك المشاهير وهم يجاورون بها، ويتخذون منها مقرا ومقاما يدنون ما تجود به قرائهم من أعمال على درجة كبيرة من الأهمية نذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ الشهير " السخاوي " الذي ألف كتابا في تاريخ المدينة أسماه " التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة " أثناء تواجده بها، وكان الشروع في تبليغه والرجوع لتهديبها وتنهيه حين كوني بطيبة الشريفة " وفي موضع آخر يؤكد لنا علماء الحجاز وبوجه خاص علماء المدينة المنورة ومكة المكرمة كانوا على إطلاع دائم بأحدث ما تنتجه قرائ مشاهير علماء ذلك العصر، فنراه يقول أن مؤرخ المدينة السيد العلامة السمهودي (ت 911هـ/1505م) كتب إلى مؤرخ مكة الشهير العز ابن فهد يعرفه بهذا المؤلف الهام في تاريخ المدينة ويحرضه على ضرورة الاطلاع عليه واقتنائه كلما أمكن ذلك (16).

وهكذا يتضح لنا مدى حرص علماء المدينة المنورة ومكة المكرمة على الوقوف على كل ما هو جديد، في ميدان التأليف، وربما قال قائل أن هذا كان سهلاً وممكنًا بالنسبة لعلماء مصر والشام، لكن ما هو الحال بالنسبة لعلماء المغرب العربي والذين باعدت الشقة بينهم وبين علماء الحجاز، وللدرد على هذا الاستفسار نقول أنه كانت نسبة لا يستهان بها من المشتغلين بالأسفار في تلك العصور جمعوا بين حياة العلم وحياة التجارة، بمعنى أن رحلتهم كانت في طلب العلم والتجارة معا ولم يكن هناك ما يمنع أن يكون التاجر فقيها أو محدثا، أو مقرئا، أو مفسرا أو العكس صحيح، وفي عصور لم تكن معروفة ما نعرفه اليوم من وسائل الإعلام، كانت الأخبار والمعارف والكتب تنقل جميعا بصحبة التجار (17).

وفي ظل حضارة غلب عليها طابع الإيمان، وارتبط العلم فيها أساسا بالعلوم الدينية حرص كثير من التجار الركاضين أي غير المقيمين والمتنقلين من مكان لآخر على انتهاز الفرصة لتجولهم ومرورهم بعدد من المدن ومراكز العلم والمعرفة للتزود بقدر من العلوم يحقق لهم صلاح الدنيا والآخرة. وقد وصل بعض هؤلاء التجار إلى مصاف كبار العلماء المعاصرين بحيث لا يكاد أحدهم يصل إلى بلد من بلاد الإسلام إلا ويلتف حوله تجار ذلك البلد من ناحية، وعلماءه من ناحية أخرى، الفريق الأول يشترون منه ويبيعون له، والفريق الثاني يسمعون منه ويتحدثون إليه، ولدينا العديد من الأمثلة على هؤلاء التجار في الفترة التي نحن بصددتها (18) وفي مثل هذا الالتقاء الثقافي كان يتم التعرف على ما في جعبة هؤلاء من كتب دونتها أقلام علماء كثير من المدن المغربية وغيرها، ولا نستبعد أن يكون النساخون قد قاموا بنسخ الكثير منها على حساب من يطلبها منهم.

كذلك يشير الرحالة المغربي ابن يوسف التجيبي الذي زار المدينة المنورة عام 696 هـ / 1296م إلى أن علماء الحجاز بوجه عام كانت لهم مراسلات خاصة مع كبار ومشاهير علماء ذلك العصر في كل بقاع العالم الإسلامي وأن هذه المراسلات كانت دائمة ومستمرة يصفون لهم فيها مدى ازدهار الحياة الثقافية في الحجاز، ويتعرفون من خلالها على أهم أعمالهم ومؤلفاتهم، بل أن كثيرا من المؤلفات كانت تصلهم باستمرار بواسطة من يفد من هذه البقاع المختلفة إلى الحجاز في مواسم الحج والعمرة سنويا (19) بل إنه نفسه كان يحمل في جعبته كثيرا

من كتبه التي اطلع عليها ممن قابلهم من علماء الحجاز أثناء رحلته، وبذلك كانت هذه المراسلات والمكاتبات تشكل رباط ثقافيا وفكريا بين هؤلاء العلماء ساعد على ازدهار الحياة العلمية في الحجاز في ذلك العصر بوجه عام وفي مجال الكتب والمكتبات بوجه خاص، وما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد فيجدر بنا أن نتحدث عن مكتبات المدينة المنورة في ذلك العصر ويأتي في مقدمة المكتبات بها.

1- خزائن الكتب في المسجد النبوي الشريف:

كانت خزائن الكتب في المسجد النبوي الشريف من أهم الخزائن في بلاد الحجاز لما كانت تحتويه من كنوز المعرفة بالرغم من ضياع الكثير منها بالحريق وغيره، هذه الخزائن أو المكتبة يرجع تاريخها إلى فترة متقدمة على العصر المملوكي، فيشير الرحالة ابن جبير الذي زارها عام 581هـ إلى ضخامة هذه المكتبة فيقول إنه شاهد في المسجد النبوي الشريف خزانتي كبيرتين محتويتين على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك (20). كذلك يشير الرحالة المغربي ابن رشيد الذي زار المدينة المنورة أثناء رحلة الحج التي قام بها سنة 648هـ/1250م وهو العام الذي شهد قيام دولة سلاطين المماليك في مصر، ويصرح أن خزانة الكتب في المسجد النبوي الشريف كانت حافلة بكثير من أنواع الكتب وبخاصة الكتب الدينية منها، كما يشير إلى تعداد خزائن الكتب داخل الحرم النبوي الشريف وأنه تم تخصيص خزانة لوضع المصحف الشريف هذه الخزانة عند موضع سجود رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقصد بذلك المحراب النبوي الشريف (21).

كما تشير أحد المصادر أيضا إلى أنه كانت هناك قبة في صحن الحرم النبوي الشريف تم بناؤها سنة 760هـ / 1179م لتكون خزانة يحفظ فيها حواصل الحرم وذخائره، مثل المصحف الكريم العثماني وعدة صناديق كبار مليئة بنوادير الكتب، ولما احترق المسجد النبوي الشريف سنة 654هـ/1256م صان الله تعالى هذه الخزانة وما بها من مصاحف وكتب نادرة (22). ومما يدل على تعدد خزائن الكتب في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة في ذلك العصر، وتنوعها في نفس الوقت ما أشار إليه الرحالة ابن رشيد كذلك من قول: " قرأت مكتوبا في وجه

الخزانة الكريمة التي تقابل المتوجه إلى الروضة الكريمة وهي التي يضع الناس فيها الكتب الواردة بالتسليم عليه صلى الله عليه وسلم هذين البيتين مكتوبين ببياض في سواد:

سعدتم يا زائرين ضريحه أمنتهم به يوم المعاد من الرحى

سلمتم وأصبحتم بأكناف طيبة فطوبى لمن يضحى بطيبة أو رعى

وبلغني أن هذين البيتين من كلمة لمحمد بن رشيد بفتح الراء وكسر الشين البغدادي الواعظ، وهذه الخزانة الموضوعية في هذا الموضع كأنها قصد بها أن لا يستقبل المصلي شيئاً من الروضة الكريمة، ولذلك بنيت من الجهة الجنوبية على زاوية حادة لئلا يستقبل المصلي منها شيئاً والله أعلم " واضح من هذه العبارة أنه تم تخصيص بهدف الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم (23) وما أكثر هذه الكتب وما أكثر قصائد المديح التي كان يأتي بها المسلمون من كل بقاع العالم الإسلامي.

نذكر من هذه القصائد على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره الرحالة المغربي العبدري الذي زار المدينة المنورة في رحلة الحج سنة 688هـ/1289م وفي طريق ذهابه إليها قادما من المغرب مر بمدينة الإسكندرية ولقي أحد كبار علمائها في تلك الفترة وهو الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن منصور المالكي ويعرف بابن المنير فيقول: " وسمعت من لفظه قصيدته النبوية التي نظمها في سفره إلى الحجاز ثم كتبتها وقرأتها عليه وهي من حر القصائد.... وأنا إن شاء الله أثبت القصيدة هنا بجمليتها وهي.... " ثم يورد قصيدة من أربعة أبيات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم (24) وفق موضع آخر يورد قصيدة ثانية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ تاج الدين أبو الحسن علي العراقي العراقي الذي لقيه أيضا في مدينة الإسكندرية وهي مكونة من خمسين بيتا أسماها ذات الشفاء في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم (25). وهذه بعض الأمثلة القليلة من العديد والعديد من القصائد النبوية التي كان يرسلها كبار شعراء ومحدثي وفقهاء ومثقفين ذلك الزمان إلى تلك الخزانة الشريفة. والجدير بالذكر أن هذه القصائد لم يختص بها أهل قطر بعينه. بل تنافس في إرسالها الناس في كل الأقطار

الإسلامية في الشرق والغرب على السواء⁽²⁶⁾. وكان يتم حفظها في مثل تلك الخزائن التي سبق ذكرها وربما في غيرها من الخزائن نظرا لكثرتها وعدم استيعابها في مكان واحد.

ومما يدل على تنوع خزائن الكتب في المسجد النبوي الشريف كذلك، ليس في أنواع الكتب فحسب، بل وفي نوع العلوم المختلفة أيضا ما يذكره العياشي المغربي في وصفه لهذه المكتبات من أنها كانت تفتح ليستعير الناس منها للقراءة في شتى أنواع العلوم وبخاصة العلوم الدينية منها، ويستمر الحال طوال السنة على هذا المنوال حتى إذا كان اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة من كل عام وهو الذي يسمونه الكنيس، جمعت بسط الحرم كلها وأدخلت في المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحصر، وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسباحات إلى الروضة، ورد كل من استعار كتابا إلى ناظر الخزانة التي أخذه منها، يتهياون بذلك للموسم، لأنه في الغالب مظنة ارتحال قاطن وقدوم غائب واجتماع الناس من الآفاق⁽²⁷⁾.

وقد كانت مكتبات الحرم النبوي الشريف دائما محل رعاية سلاطين وأمراء المماليك وحكام المسلمين في كثير من أنحاء العالم الإسلامي فعندما استولى الحريق سنة 654هـ/1256م وسنة 886هـ/1481م بادر سلاطين المماليك إلى تعويض مكتبات الحرم بما أتلفه الحريق وأكثر، إذ أشارت بعض المصادر المعاصرة إلى ما تم عقب الحريق الثاني بوجه خاص، فقد قام مؤرخ المدينة السهمودي بزيارة لمدينة القاهرة عاصمة دولة سلاطين المماليك، فأمر السلطان الأشرف قايتباي⁽²⁸⁾ بتعويض مكتبات الحرم المدني عما احترق من المصاحف والكتب الدينية المختلفة وغيرها، وأن ترسل صحبة السهمودي عند عودته بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما احترق، كذلك وعده بأن يرسل من الكتب كل ما تحتاج إليه خزائن المسجد النبوي الشريف، كما عين ناظرا للحرم النبوي الشريف ليشرف على إعادة عمارة المسجد النبوي الشريف، ولما تمت إعادة بناء معظم المسجد الحرام اتخذ البنائون فيما أعادوا بناءه من الجدار الشرقي خزائن الكتب، وصار ناظر الحرم الشريف الأمير الكبير فخر الدين قاسم الفقيه يباشر أمر الربعات والمصاحف بنفسه ومماليكه، واتخذ لها كراسي صغارا توضع عليها بالروضة الشريفة في أوقات الصلوات النهارية فيقرأ الناس فيها وعم نفعها⁽²⁹⁾. وفي العام التالي سنة 889 هـ/ 1484م بعث السلطان

قايتباي إلى الحرم المدني الشريف بكثير من الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية مع بهاء الدين أبي البقاء ابن الجيعان الذي وصل المدينة المنورة في السابع من شهر ذي القعدة ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية وغيرها، وكان بينها مصحف كبير الحجم⁽³⁰⁾ على جمل بمفرده "مصحف حمالي" وكان من النوادر على حد قول ابن إياس المؤرخ المعاصر هذا المصحف كان قد بدأ في كتابته الخطاط الشهير شاهين النووي، ولكن مات قبل أن يتمه فأكماله الخطاط المجيد كاتب الوثائق خطاب بن عمر الدنحوي بأمر من السلطان قايتباي نفسه، ولعل هذا المصحف لا يزال محتفظاً به مخلداً ضمن مجموعة المصاحف الكريمة والقيمة في مكتبة المصاحف بالمدينة المنورة⁽³¹⁾.

ومن حكام المسلمين الذين أو لو مكتبة الحرم المدني بالرعاية السلطان شاه شجاع بن محمد بن المظفر جلال الدين أبو الفوارس النودي (ت 787 هـ / 1385 م) سلطان بلاد فارس الذي جاءت ترجمته في كتاب "التحفة اللطيفة للسخاوي" له في الحرم المدني آثار أبرز بها خوافي المحامد، وآثار منها الخزانة الشريفة المشتملة على محاسن الكتب ومفاخرها، فما من طالب مقتبس إلا وهو يستند من جواهر ذواخرها⁽³²⁾.

ومما لا شك فيه أن مكتبات الحرم النبوي الشريف ازدهرت مقتنياتها مع مرور الزمن، بفضل رعاية كثير من الحكام من ملوك وسلاطين وأمراء، وعلماء بسبب الصلة الروحية التي كانت تربطهم بالحرم النبوي الشريف، ومنه من وقف بعض العقارات عليها حتى صار يشار إليها بالبنان وأضحى ذكر مكتباتها ومخطوطاتها جارياً على كل لسان⁽³³⁾.

وفي بداية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي زار الرحالة عبد الغني النابلسي هذه المكتبة والتي كانت تضم كثيراً من الكتب في علوم شتى، منها الجامع الكبير في الحديث لجلال الدين السيوطي - رحمه الله - في خمس مجلدات كبار، ومنها جزء ثالث في مجلد ضخمة من شرح سنن ابن ماجه للشيخ الدميري - رحمه الله -، ومنها تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر - رحمه الله - الموجود منه غير المكرم ثلاثة وتسعون جزء كل جزء مجلد على

حده الثلاثة أو الأربعة كراريس بالقطع الكامل وجملة مجلدات جزءاً الكتاب خمسمائة وسبعون مجلداً وغير ذلك من نواذر الكتب والمخطوطات التي لا حصر لها (34).

ومن المرجح أن تكون المكتبة التي قام شيخ الإسلام عارف حكمت بإنشائها ملاصقة للحرم النبوي الشريف سنة 1260هـ وقد ضمت بعض مقتنيات خزائن الكتب التي كانت موجودة في الحرم النبوي الشريف والتي بلغ مجموع ما بها من الكتب 4555 مخطوطاً وأكثر من ألفي كتاب مطبوع وجميعها من الكتب النادرة، ولها سجل مخطوط في خمسة أجزاء، أما المكتبة المعروفة الآن باسم مكتبة الحرم المدني والتي يبلغ عدد كتبها 5153 كتاباً، منها 500 مخطوط فلا شك أنها تشكل جزءاً من خزائن الحرم النبوي الشريف بالإضافة إلى بعض المكتبات الأخرى الصغيرة التي تخص بعض علماء أهل المدينة والتي ضمت إليها (35)، كذلك لا نستبعد أن تكون بعض الأيدي قد عبثت بها فضاعت بعض محتوياتها نتيجة لانعدام الرقابة على المكتبات الموقوفة مثلها مثل كثير من المكتبات في العالم العربي، فتسرب الكثير من مخطوطاتها النادرة إلى الخارج وأصبحت مكتبة المتحف البريطاني بلندن ومكتبة ليدن في هولندا، ومكتبة نظام حيدر آباد بالهند وغيرها من المكتبات العالمية تزخر بالكثير من تراثنا (36).

2- خزائن المدارس والكلليات الجامعية:

من المعروف أن العالم الإسلامي بوجه عام والمدينة المنورة بوجه خاص قد شهد قيام حركة ثقافية ضخمة تمثلت في بناء العديد من المدارس منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد إذاً أقبل الحكام من خلفاء وسلاطين وأمراء ووزراء على إنشاء هذه المدارس بدافع التقوى والزلفى حتى شيدوا منها " ما ملأ الأخطاط وشحنها " على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين (37)، هذا فضلاً عن أن كثيراً من المقتدرين من غير الحكام كالتجار والأعيان ونحوهم قد شاركوا مشاركة فعالة في بناء هذه المدارس التي تذخر بها المدينة المنورة في العصر الذي نتحدث عنه، ومهما يقال لغويا من أن الأصل في المدرسة أن تكون مكاناً لدراسة العلوم الدينية فإن الذي نحب أن نؤكد أنه هو أن المدارس في الإسلام غدت جامعات بالمعنى الحديث الذي نعرفه، سواء من ناحية تنوع

الدراسات التخصصية ورقي مستواها فيها أو قدرتها على استيعاب طلاب العلم الوافدين إليها من شتى الأنحاء، فضلا عن أنها تميزت غالبا بمساكن لطلاب العلم والمدرسين، وربما ألحق بها سبيل للشرب يعلوه مكتب لتعليم الأيتام (38).

كما أدرك المسلمون أهمية المكتبات بالنسبة للمدارس فعنوا بالكتاب والمكتبة عناية فائقة لذلك نجد أنه ما من مدرسة بالمدينة المنورة إلا وكان بها مكتبة خاصة بالكتب الثمينة وهذه المدارس كثيرة وشهيرة، منها ما هو متصل بالحرم النبوي الشريف بين باب السلام وباب الرحمة، ومنها ما هو حول المسجد، ومنها ما هو بالقرب من باب جبريل أحد أبواب المسجد النبوي الشريف (39) بل إنه روعي في بنائها في غالب الأمر أن تكون مطلة ولها شبايك شارعة على المسجد نفسه (40) وكان الهدف من تزويد هذه المدارس "بخزائن الكتب" أي المكتبات التي يرجع إليها المدرسون والطلاب في البحث والاستقصاء (41)، ولذا فقد وقفوا عليها الكتب الكثيرة في مختلف ألوان المعرفة والمصاحف والربعات الشريفة، مما أثر بدوره في خزائن الكتب الأخرى أو بعبارة أخرى أنه قد قلت عناية سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم من أهل اليسار بالمكتبات الموجودة في المؤسسات الثقافية الأخرى بالمقارنة لعنايتهم بمكتبات المدارس التي ابتنوها (42). ولا شك في أن هذا يعتبر تطورا كبيرا في تاريخ المكتبات، لإتاحة الفرصة للانتفاع بما فيها من كتب على نطاق أوسع وحصرها على المشتغلين بالعلم وما أكثرهم في ذلك العصر.

كذلك مما لا ريب فيه أنه إذا كانت السمة الغالبة على عدد كبير من مكتبات المدارس التي بنيت للشهرة والمعرفة بين الخاصة، والرفعة في الأقران والسطوة للملوك والسلاطين (43)، فإن مكتبات مدارس المدينة المنورة قد تم بناؤها على أساس حفظ الدين ومكارم الأخلاق ونشر العلوم وابقاء الفنون وترويج سنن الأولين وإقناع البدع فضلا (44) عن أن مؤسس المدارس من سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم قد أدركوا أهمية الدور التعليمي الذي تلعبه المكتبة فخصصوا لها مكانا في مدارسهم. والحقيقة أنه قال أن مؤسس مدرسة في العصر المملوكي دون أن يحوي تصميمها المعماري خزانة تزود بالكتب المختلفة في علوم الدين والحياة لتعيين المدرسين والمعيدين وطلبة العلم الشريف، وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرما باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفيها، وجمع المصاحف

الكريمة والربعات الشريفة ذات الخطوط المنسوبة التي كتبها أشهر الخطاطين، وزخرفها أحسن المذهبيين وغيرهما من روائع المخطوطات والكتب النادرة وقاموا بوقفها على خزانات الكتب بالمدارس التي أنشأوها أو غيرها من المؤسسات الاجتماعية والدينية⁽⁴⁵⁾. ومن ثم فإنه لا غرابة أن نسمع مثلاً أن السلطان الأشرف قايتباي عندما أمر في سنة 887هـ/1482م بإنشاء المدرسة الأشرفية بين باب السلام وباب الرحمة من أبواب المسجد النبوي الشريف. فلما تم بناؤها سنة 889هـ/1484م بإنشاء المدرسة الأشرفية بين باب السلام وباب الرحمة من أبواب المسجد النبوي الشريف، فلما تم بناؤها سنة 889هـ/1484م أرسل إليها أحمالا من الكتب الشرعية وغيرها من نواذر الكتب⁽⁴⁶⁾، لتوضع في خزانة الكتب بها، وأن مكتبة المدرسة الشهابية وكانت موقوفة على المذاهب الأربعة، كان بها من الكتب ما لا يحصى كثرة من نواذر الكتب الثمينة والنفيسة في نفس الوقت⁽⁴⁷⁾.

أيضا نستطيع أن نقول إن سلاطين المماليك كان لهم ولع باقتناء الكتب ذلك لأنهم باعتبارهم حماة للمذهب السني بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة في أعقاب سقوط مدينة بغداد على أيدي المغول سنة 656هـ/1358م والداعين إليه في مواجهة المذهب الشيعي الذي كان شائعا في المدينة المنورة وبخاصة بين حكامها من الأشراف⁽⁴⁸⁾. ولا شك أن الكتب هي الوسيلة الفعالة والأداة القوية لنشر علوم المذهب السني ودراسته بين الناس عامة وطلاب العلم خاصة، بالإضافة إلى أنها دليل واضح على مقدار تقدم العلم والتعليم في العصر، وانتشار الآداب والعلوم⁽⁴⁹⁾. لذا فقد ركزوا على هذه الكتب في الخزائن الموجودة في المدارس، والمارستان، المسجد النبوي الشريف والربط والخوانق وغيرها من المؤسسات الثقافية، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة التي اقتناها مشاهير ذلك العصر، فكانت خزائن الكتب تحوي كتب السنة والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء وغيرها⁽⁵⁰⁾ من الكتب التي تم تداولها في ذلك العصر بشقيه أي طوال عصر سلاطين المماليك البحرية والمماليك الجراكسية. أيضا يجب أن نذكر حرص سلاطين وملوك المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي على تزويد مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة بالكتب القيمة، فذكر من هؤلاء السلطان مظفر شاه 916هـ-932هـ/1510م-1526م سلطان دولة الكجرات بالهند، وكان

حسن الخط كتب بيده جملة من المصاحف الشريفة، وأرسل فيما أرسل كتب جليلة مصحفا إلى المدينة المنورة الشريفة (51). وعن المكان الذي كانت توضع فيه خزانة الكتب في المدارس في المدينة المنورة في العصر المملوكي، فالحقيقة أن المصادر التي بين أيدينا قد أغفلت علينا بذلك كما لم نعثر على المعلومات الكافية التي توضح بجلاء هذه الناحية ومع هذا فإنه يمكن القول أن مكتبات المدارس في المدينة المنورة بوجه خاص وبلاد الحجاز الأخرى بوجه عام لم تخرج في طابعها عما هو مألوف في شتى أنحاء دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز. ولقد كانت خزانة الكتب في العارة تحتل مكانا خاصا هو إحدى خزانات أو قاعات أو حواصل المدرسة المملوكية في مكان متوسط من البناء كله بين الإيوانات الأربعة أو بين الإيوانين إذا كانت المدرسة مبنية من إيوانين فقط، ليسهل الوصول إليها ليكون موقعها وظيفيا، وغالبا ما كانت خزانة الكتب من إيوان القبلة بالذات (52)، وإن كنا نرجح استثناء مدارس مكة بوجه خاص من هذه القاعدة حيث تركزت مدارسها حول الحرم المكي الشريف، لذا فلم تكن هناك حاجة لوجود محراب فيها لإقامة الصلاة إذ من الطبيعي أن يحرص النازلون فيها على الصلوات في الحرم المكي الشريف، وربما كان الحال كذلك في مدارس المدينة المنورة، لما للصلاة في الحرمين الشريفين من فضل على الصلاة في غيرهما هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد وجدت بعض خزائن الكتب في بعض مدارس مكة في حاصل المدرسة والذي قد يكون في أعلى المدرسة حيث توجد الخلوي للطلبة النازلين بها، فتخصص إحدى هذه الحجرات لخزانة الكتب مثلما كان الحال في المدرسة التي يذكرها أحد كبار مؤرخي مكة في ذلك العصر فيقول عنها " مدرسة الملك الممدوح جميل الصفات مغيث أهل الحرمين الشريفين جزيل الصلات مولانا السلطان الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه بن السلطان سعيد الشهداء إسكندر شاه بن السلطان شمس الدين المغفور له صاحب بنجاله، والتي تم بناؤها سنة أربع عشرة وثمانمائة هجرية.. فقد جعل الواقف المنازل التي تعلوها وهي إحدى عشرة خلوة محلا لسكنى جماعة من الفقراء خلا واحدة منها فإنه جعلها خاصا للمدرسة المذكورة " (53).

والسبب التي كانت من أجله توضع خزانة الكتب في إيوان القبلة أو في مكان متوسط من المدرسة أو بالقرب من منازل الطلبة داخل المدرسة هو أن تكون كتبها في متناول الجميع من العلماء والطلبة الدارسين في مختلف الإيوانات في المدرسة ذات التصميم المتعامد، وعادة ما توجد في مكان مرتفع عن أرضية الشارع، وبعيدة في الوقت نفسه عن دورات المياه والرطوبة، ولذلك كان أنسب مكان لها هو إيوان القبلة الذي به المحراب. وإذا حدث وضاعت خزانة الكتب بما تحويه من مصاحف وربعات شريفة وكتب مختلفة نتيجة النمو في حجم المجموعات، كانت تستخدم خزانة أخرى قريبة منها بالمدرسة نفسها، أما عن الناحية الجمالية في خزانة الكتب في المدرسة، فمن المعروف أن كل خزائن الكتب في المدارس المملوكية بوجه عام كانت خالية من الزخرفة والزينة، بسيطة في تكوينها وأثاثها.

فالمدرسة الغياثية بأنها كانت كإحدى الخلاوي المخصصة لسكنى الطلاب وضمن مجموعة الخلاوي التي اتصفت بالبساطة لا فخامة فيها لأن الغرض الأول والأخير من وجودها هو حفظ الكتب وغيرها وتسهيل استعارتها من أجل البحث والدراسة (54).

ويجب أن نضع في اعتبارنا أن هناك خلافاً بين مدلول لفظة الخزانة في العصر المملوكي، ولفظة المكتبة في عصرنا الحديث، فالخزانة في المدرسة في ذلك العصر تدل على المكان الذي كانت تحفظ فيه الكتب والمصاحف والربعات الشريفة والمخطوطات وغيرها، بينما كانت الإيوانات الأربعة في الأوقات التي ليس فيها دراسة أو حتى أثناء الدراسة كانت تتخذ كقاعات للقراءة والبحث والاطلاع والنسخ أي أنها كانت تتحول بكل إمكانياتها لخدمة النشاط المكتبي في الوقت الذي كانت فيه خزانة الكتب جزءاً لا يتجزأ من المدرسة فهي ليست قائمة بذاتها في مبنى مستقل أو ملحق بالمدرسة، بل أنها ضمن عمارة المدرسة نفسها وقبله أنظار الجميع فهي مكتبة جامعية متخصصة في مؤسسة تعليمية اجتماعية مما وفر للمدرسة خدمة مكتبة قريبة (55). والخزانة بذلك تختلف كل الاختلاف في أوجه كثيرة عما نعرفه عن المكتبات في عصرنا الحديث.

أيضا هناك نقطة ما بالنسبة لأهمية خزانات الكتب في المدارس في ذلك العصر أو الكليات الجامعية حسب مصطلح عصرنا الحديث، وهو أن خزانات الكتب هذه لم تكن تحمل أو تترك مغلقة على ما فيها من الكتب بل كانت محور النشاط التعليمي في هذه المدارس، وأنها لم تكن للتعليم فقط بل وللتعلم كذلك وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة عظيمة القدر والقيمة، وتتضح تلك الأهمية من خلال التعرف على مهمة المدرس الذي كان من أهم واجباته أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف (56) إلى ترغيب الطلبة في العلم وتحصيله بالاعتماد على الكتب والمكتبات. يضاف إلى هذا أنه كان عليه دائما أن يوضح للطلبة كل ما يشكل فهمه عليهم ويكشف لهم غوامض الأمور ومشكلاتها سواء بطريق مباشر أي بنفسه، أن يطلب منهم البحث في الكتب المختلفة للتوصل لذلك بأنفسهم تحت إشرافه ويأخذ بيدهم عند الضرورة ويشجعهم دائما على البحث والاشتغال الدائم بالعلم (57).

ومن ثم تكون خزانة الكتب مستودعا منعزلا للكتب بل كانت مؤسسة وثيقة الصلة بروح التعليم، ومكانا للرفي الفكري والإشعاع الروحي، ومركزا للمعرفة ووحدة وظيفية لها غاية تعليمية ورسالة حيوية في المدرسة المملوكية أكثر مما هي مكان به مجموعة من الكتب المخطوطة محبوسة عن الطلبة. وكانت ثرواتها الضخمة من مجموعات الكتب في خدمة جمهور المدرسة وحده من المدرسين والطلبة فقط بكل ما لهم من مطالب وقاصرة عليهم لحد كبير. كما كانت عنصرا هاما وركنا أساسيا في التربية في هذه المدارس لا يمكن الاستغناء عنه وإنكار فضله، لأنها أسهمت بقدر كبير في تأكيد فكرة التعليم الجامعي بمعناه الأصيل السليم (58)، ولأن أهم ميزة للتعليم في هذه المدارس أو الكليات هي الحرية التي كانت عنصرا رئيسيا متوافرا بدرجة كبيرة (59). ذلك أن المستوى الفكري لطلاب العلم وتطلعاته وطموحه كانت هي العوامل الأساسية التي تدفعه تلقائيا إلى التطلع إلى مستوى أرقى من التعليم دون أن تحد من حريته بأي قيود أو شروط. وكلما ما هنالك أن سار وفق ما تتطلبه به العقيدة الإسلامية من حرص على العلم والاشتغال به، وفي ظل هذا المناخ التعليمي تمتع الطلبة بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث " لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة مما يختاره من أنواع العلوم الشرعية " (60). وهكذا كانت الدراسة في

تلك المدارس تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الكتب الموجودة في خزانة الكتب الخاصة بهذه المدرسة أو تلك والبحث فيها، وبذلك كانت خزانة الكتب في كل مدرسة عبارة عن مؤسسة اجتماعية تعليمية لا تقتيد بمنهج مرسوم أو برنامج معين، وتغلب عليها الصيغة الحرة بدلا من الصيغة الرسمية في المدرسة لأن خير تعليم هو ذلك الذي يستطيع الفرد فيه أن يناله أو يحصله بنفسه "التعليم الذاتي" في جو تسوده الحرية والرغبة والميل، فيفيد منه الإنسان وتبرز شخصيته بعد أن تعود على البحث بنفسه في المصادر وهذا هو السبيل القويم للتعليم⁽⁶¹⁾.

القائمون على العمل في خزانة الكتب:

أ- خازن الكتب:

يأتي في مقدمة القائمين على العمل في خزانة الكتب في مدارس المدينة المنورة في العصر المملوكي، بل وفي غيرها من المدن التي خضعت لسلطنة المماليك " خازن الكتب " أو أمين المكتبة حسب مصطلح عصرنا الحديث، كذلك أطلق عليه اسم "حافظ الكتب" ⁽⁶²⁾ ووضح أن وظيفته كانت من الوظائف الهامة في ذلك العصر، فقد ولي السلطان الأشرف قايتباي الشيخ السمهودي وهو من كبار علماء المدينة المنورة الإشراف على خزانة الكتب في مدرسته التي بناها في المدينة المنورة بما يؤكد أن مؤسس المدرسة سواء كان ملكا أو سلطانا أو أميرا أو حاكما من حكام المسلمين كان يحرص دائما على أن يختار لمكتبة مدرسته أفضل من يصلح لهذا المنصب ⁽⁶³⁾، مما يؤكد بأن منصب الخازن أو الأمين بالمكتبة كان منصبا رفيعا لا يتولاه إلا الشخصيات الكبرى أو أحد كبار العلماء في الفقه واللغة والأدب وغيرها من العلوم والمعارف السائدة في ذلك العصر ⁽⁶⁴⁾. لكي يكون عوناً للطلبة والباحثين في إرشادهم إلى ما يحتاجون إليه من مراجع ⁽⁶⁵⁾. ولقد حددت وثائق الوقف مهمة أمين المكتبة والذي كان في نفس الوقت عضوا بارزا ولامعا في المدرسة، فهو من رجال العلم واسع المعرفة وتبدأ مهمته منذ أن يقوم الناظر على وقف المدرسة بتسليم الكتب إليه ويحرر محضرا بتسلمه هذه الكتب ثم توقيع بعض الشهود على المحضر، ثم يتولى حفظها وترتيبها والعناية بها ونفض الغبار عنها ⁽⁶⁶⁾. وقد ذكرت لنا كتب بعض الفقهاء المعاصرين مهمة هذا الخازن أو الأمين أو شاهد خزانة الكتب أو خازن الكتب والربعات الشريفة حسب مصطلح

ذلك العصر، وحددت عمله بشكل واضح نحو الكتب إذ "حق عليه الاحتفاظ بها وترميم شعنها، وحبكها عند احتياجها للحبك. والضنه بها على من ليس من أهلها وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقوم في العرية " الاستعارة " الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء وكثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يجوز قيمته وهو شرط صحيح معتبر فليس للخازن أن يعير إلا برهن" (67).

كذلك من سلطانه في بعض الأحيان أو حسب شروط الواقف ألا يخرج شيئا من الكتب والمصاحف من خزانة كتب المدرسة التي يشرف عليها برهن ولا عارية ولا بغير ذلك بوجه من الوجوه (68).

وكان يشترط فيه أن يكون ثقة خيرا أميناً يقظاً ذكياً فطنا عاقلاً مأموناً بالغاً في الأمانة والثقة والنزاهة وقلة الطمع قادراً على القيام بخدمة الكتب عارفاً بترتيبها (69).

أما إذا ثبت عجزه وأنه فرط في كتب المدرسة التي يتولى الإشراف على خزانة الكتب فيها، فإنه يتم عزله من منصبه هذا، وإحلال شخص آخر محله بعد أن يتم تغريمه ثمن ما ضاع من كتب وغيرها نتيجة إهماله هذا أو تقصيره (70).

ومن المرجح أن وظيفة الخازن أو أمين المكتبة في ذلك العصر كان يتوارثها الأبناء عن الآباء، وقد كان هذا الطابع الغالب على كثير من الوظائف بوجه خاص طوال العصر المملوكي، إذ توارثت أسرات بعينها مناصب ووظائف معينة في كثير من المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية، فليُنظر ذلك هناك، لكن من المرجح أن يكون تولى الابن الوظيفة يعد والده مشروطاً حسبما جرى به العرف في ذلك العصر إذ تشير إحدى وثائق من العصر المملوكي إلى هذه النقطة صراحة يقولها " ومن توفي من أرباب الوظائف وله ولد صالح لوظيفة والده قرره الناظر مكان والده في الوظيفة المذكورة بمعلومة المشروط له في كتاب الوقف، فمان لم يكن له ولد كان وليس أهلاً فمان كان يرجى صلاحه قرر الناظر نائباً عنه إلى حين صلاحه ومباشرته وظيفة والده فإن لم يرجى صلاحه نزل الناظر أحداً من طلبة العلم الشريف المتصفين بالصفات المذكورة وأجرى عليه معلومها " (71).

ومن المعروف أنه لم يكن يسمح للخازن أو غيره من أرباب الوظائف بالجمع بين وظيفتين أو أكثر إلا بشرط الواقف، وإن كانت بعض الوثائق تشير إلى أنه يمكن في حالة الضرورة أن يجمع بين عدة وظائف ويتناول معلومها أي مرتين كل وظيفة على حده كما حددت بعض وثائق الوقف المملوكية العطلات الرسمية لأرباب الوظائف ومنها وظيفة خازن الكتب كان يسافر لأداء فريضة الحج فيصرف له راتبه عن المدة التي سافر فيها إلى أن يعود، كذلك في حالة سفر لزيارة أهله وصلة رحمة، فقد كان يسمح له بذلك في حدود ثلاثة أشهر لا غير، كذلك في حالات المرض، فإنه يسمح له إلى حين عافيته، وفي الحالات الطارئة كان يسمح له بإجازة طارئة من العمل يتقاضى عنها راتباً لمدة ثلاثة أيام في الشهر مجتمعة أو متفرقة⁽⁷²⁾.

ب- الناسخ

ومن الوظائف التي عرفتها مكاتب المدارس في المدينة المنورة في العصر المملوكي كذلك، وظيفة الناسخ وربما وجد في كل مكتبة أو خزانة كتب أكثر من ناسخ لنسخ ما يطلب منهم نظيراً أجر يدفع لهم من ريع الوقف، ذلك لأن الطباعة لم تكن قد عرفت في ذلك العصر، كما لم تكن هناك وسيلة للحصول على نسخة من أي كتاب سوى عن طريق نسخة على يد أحد هؤلاء الناسخ. والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من طلاب العلم وبخاصة من كان منهم رقيق الحال أو ممن جاور بالمدينة المنورة قادمين إليها من مختلف ربوع العالم الإسلامي، اتخذوا حرفة النسخ وسيلة يتعيشون بها مما أثمرت مكاتب المدينة المنورة بوجه عام، وخزائن الكتب في المدارس بالعديد من المؤلفات التي نقلوها عن أصولها المخطوطة. فضلاً عن أنهم ساعدوا على رواج كثير من المؤلفات لدى الوراقين وغيرهم من اهتموا بالكتب⁽⁷³⁾. كذلك كان هؤلاء الناسخ دورهم الهام في تزويد خزائن الكتب بما لا يوجد فيها من كتب نادرة، وما يتعذر تحصيله منها عن طريق نسخها وخاصة إذا كانت من أمهات الكتب في علم من العلوم، أو كان الإقبال عليها كثيراً لأهميتها وأصالتها، ولذلك وجد في بعض المكتبات أحياناً أكثر من نسخة واحدة من الكتاب الواحد، وكثيراً ما كان سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم من ذوي الجاه والنفوذ يستولون على كتب من سبقهم بثمان بخس أو بغير ثمن ويضيّقونه إلى الخزانات التي تنسب إليهم في ذلك العصر والذين وصفهم المقرئ بقوله "

في القوم إلا سارق من سارق أو غاصب من غاصب " (74)، ومع هذا تشير بعض المصادر المعاصرة إلى عدم دقة هؤلاء النساخ أحياناً عند نسخ كثير من الكتب، وربما كان السبب وراء ذلك كثرة ما لديهم من كتب ينسخونها أو السرعة وعدم تحري الصدق، فقد ذكر السخاوي في ترجمة للشيخ على شمس الدين أبي المجد بن القطب بن السراج الحسني الرميثي (ت 895هـ/1489م) بأنه قد " صار وجيها ذا دور متعددة وأماكن متنوعة وكتب نفيسة استكتب أكثرها ولكنها غير مقابلة بل كثيرة السقم مع شدة الإمساك والحرص " (75).

وعلى هذا الأساس حرصت كتب الفقهاء في ذلك العصر على إيضاح أهمية هذه المهنة، وحقوق المشتغلين بها، والشروط الواجب توفرها فيمن يشتغل بها، إذ أوضحت للناسخ أن " من حقه ألا يكتب شيئاً من الكتب المضلة ككتب أهل البدع والأهواء وكذلك لا يكتب الكتب التي لا ينفع الله تعالى بها، كسيره عنتره وغيرها من الموضوعات المختلفة التي تضيع الزمان، وليس للدين بها حاجة، وكذلك كتب أهل المجون... فينبغي للناسخ ألا يبيع دينه بدنياه، ومن الناسخ من لا يتقي الله تعالى ويكتب عن عجله، ويحذف في أثناء الكتابة شيئاً رغبة في إنجازه. إذا كان قد استؤجر على نسخة جملة وهذا خائن لله تعالى في تضييع العلم وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض، ولمصنف الكتاب في بتره وتصنيفه وللذي استأجره في سرقة منه هذا القدر. قال أصحابنا: ولو استأجره ليكتب شيئاً فكتبه خطأ أو بالعربية فكتبه بالعجمية أو بالعكس، فعليه ضمان نقصان الورق ولا أجر له ومن يستأجر ناسخاً يبين له عدد الأوراق والأسطر في كل صفحة، واختلف في الجدل إذا لم يعين على من يكون فالأصح الرجوع إلى العادة فإن اضطربت وجب البيان وإلا فيبطل العقد " (76) واضح من هذا النص أنه أورد مهام الناسخ وما يجب عليه أن يراعيه أثناء الكتابة وحقوقه عند النسخ أي أنه أورد كل ماله وما عليه، فلو تم التمسك بهذه الأمور لخرجت نسخ الكتب المختلفة على أحسن ما يكون ولما وجد هناك ما يشوب هذه العملية الهامة في مجال الخدمات المكتبية في وقت كانت عملية النسخ على درجة كبيرة من الأهمية لطالبي العلم، كذلك كان من مهمة أي ناسخ أن يرتب الأوراق التي قام بنسخها ويقدمها للمجلد الذي يتولى تجليدها.

ويبدو أن مهنة النسخ هذه لاقت إقبالا كبيرا في ذلك العصر نظرا لما كانت تدره على صاحبها من كسب مادي إذ نسمع أن أحد النساخ كان يحصل على ألف درهم للنسخة الواحدة (77).

3-المجلد:

المجلد هو في الغالب أحد أعوان خازن الكتب في كل مدرسة من مدارس المدينة المنورة في ذلك العصر، ويشير أحد المصادر المعاصرة إلى هذه الحرفة كانت معروفة في المدينة المنورة، واشتغل بها عدد لا بأس به من سكانها وبخاصة من المهتمين بالكتب والمكتبات أو بالعلوم بوجه خاص سواء كانوا من القاطنين (78) بها أم الوافدين إليها وبخاصة من المجاورين نذكر منهم على سبيل المثال " الشيخ محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن العلامة نور الدين علي بن فرحون الشمسي اليعمرى المدني المادح ويعرف بابن المجلد وربما يقال له المجلد وهي حرفة أبيه وأخيه العز عبد العزيز الذي سمع مني بالمدينة ومحمد أكبرهما، ونكسب بالعطر قليلا وحفظ القرآن، مات في ثاني ربيع الثاني سنة أحد وتسعين وثمانمائة " (79). واضح من هذا النص أن عددا لا بأس به من أفراد هذه الأسرة اشتغلوا بفن التجليد، ما يفيد أن هذه الحرفة كانوا يتوارثها الأبناء عن الآباء، فضلا عن أنه كان لها أسرارها الخاصة التي توارثها أيضا. يضاف إلى هذا ما يشير إليه نفس المصدر في مكان آخر من أن أبناء هذه الأسرة كانوا من مشاهير العلماء في المدينة المنورة طوال العصر المملوكي وبخاصة في علم الحديث، كما كانوا قضاة للمذهب المالكي بما يؤكد لنا أن هذه الحرفة تطلبت شروطا خاصة لعل من أهمها حب العلم والإقبال عليه والذي انعكس في حبهم لهذا الفن وهو فن التجليد (80). كما شارك آخرون في هذا الفن وبخاصة ممن جاؤوا في المدينة المنورة زمنا طويلا نذكر منهم على سبيل المثال أيضا " محمد بن محمد بن محمد صدر الدين بن القطب بن الصدر التاجر خادم السنباطي والملقب له بمعلم السلطان بحيث صار يعرف بذلك بين كثيرين وعند العامة بلقبه، حج معه وجاور وتكسب بالتجليد وهو أجود من غيره مع كونه متوسط الأمر في صناعته، سمع مني يسيرا " واضح من هذا النص أن المشتغلين بفن التجليد في المدينة المنورة في هذه الفترة قد تفاوتوا في مدى إتقان هذا الفن فيما بينهم وأنه تم تقسيمهم إلى درجات بناء على هذا التعاون (81).

والمعروف أن فن التجليد وتزين الكتب والمصاحف بالذهب واللازورد وغيرها من الألوان كان معروفا في الشرق العربي الإسلامي، وقد نال عناية كبيرة في شتى أنحاء سلطنة المماليك بفضل تشجيع سلاطين وأمراء المماليك حتى بلغ الذروة على عهدهم (82).

4- المناول والمذهب والفراش أو البواب:

من الوظائف التي ترجع وجودها في مكتبات المدارس بالمدينة المنورة في ذلك العصر وظيفة المناول والتي لم تختلف عن مثيلاتها في مكتبات المدارس في معظم المدن التي خضعت لسلطنة المماليك وهي وظيفة وسط بين وظيفة الخازن أي أمين المكتبة والفراش في المكتبة المملوكية والمناول لا يمكن الاستغناء عنه، لأن المكتبة أو خزانة الكتب تعتمد في تأدية خدماتها على نشاطه وتعاونيه مع الخازن (83).

وكان المناول يحضر الكتب والمصاحف والربعات الشريفة من الخزانة، ويقوم بتوصيلها إلى طالبها، وكان يعرف أماكن الكتب ويعثر عليها بسهولة ودون معرفته غالبا لما تحتويه من مادة علمية، كما كان يسعى بها إلى القراء والنساخين وغيرهم من طلبة العلم والباحثين، وعندما ينتهون من حاجتهم إليها، كان يقوم بإرجاعها إلى الخزانة أو الرفوف يضعها في أماكنها، كل ذلك تحت إشراف الخازن أو الأمين. ولذلك كان يعبر عنه أحيانا بالخدام أو حامل المصحف أو خادم الربعة الشريفة تأديبا (84). وفي بعض الأحيان كان الخازن يجمع بين وظيفة الأمين والمناول في آن واحد. وربما كان هناك شخص آخر كانت مهمته تذهيب الكتاب والمصاحف والذي كان من حقه ألا يذهب غير المصاحف، وإن كان هناك اختلاف في الرأي حول تحلية المصاحف بالذهب حسبما تشير بعض المصادر بذلك، واشترطت فيه نفس الشروط التي كانت تشترط في الناسخ (85).

كذلك وجد في كل مدرسة شخص يقوم بالفراشة والبوابة لحفظ المكان وضبطه وما به من بسط وفرش وقناديل وغير ذلك من الكتب وغيرها.

ويظهر أن عدد موظفي المكتبة كان يتوقف على مجموع الدارسين والمدرسين والطلبة الذين تخدمهم المكتبة أو خزانة الكتب، وعلى نوع الخدمات التي كانت تؤدي لهم (86).

المرتبات وأوجه الصرف الأخرى:

لقد لعب نظام الوقف الإسلامي دورا كبيرا بوجه خاص في المدينة المنورة في العصر المملوكي، وأدى خدمات جليلة في مختلف النواحي ومنها الناحية التعليمية على وجه الخصوص. والواقع أن إرسال الكتب إلى المدارس ووقفها بخزانات الكتب على طلبة العلم الشريف، كان من أهم أعمال الخير والبر التي قام بها سلاطين وأمراء الممالك وغيرهم من حكام المسلمين والمشايخ والأعيان والأثرياء وأهل الخير الذين كانوا يمدون المكتبات بما يلزمها من الكتب ونوادير المخطوطات والمصاحف وغيرها لينتفع بها المدرسون والطلبة طوال العصر المملوكي. كما أن الأوقاف كانت هي المصدر الرئيسي للإتفاق على خزانات الكتب بالمدارس، وما يلزمها ولسد احتياجاتها المختلفة، ومن ريع هذه الأوقاف كانت تخصص بعض الأموال لأغراض الخدمة المكتبية، كما كانت المكتبات تزود بما يلزمها من كتب وورق، وأحبار وأقلام، كما اشترى ما يلزم المدارس من البسط والسجاجيد والحصير والقناديل والزيت (87). ومن ريع الأوقاف كانت ترمم عمارة المدرسة وخزانة الكتب وما بها من كتب في مختلف العلوم، وأدوات الكتابة والمصاحف والربعات الشريفة، كذلك كانت تدفع مرتبات أرباب الوظائف وغيرهم بالمدارس. ومنهم خزانة الكتب والمناولون والفراشون، وهذه المرتبات غالبا ما كانت تحدد حسب ريع الوقف الذي تم وقف عليها، ومن الطبيعي أن تتفاوت مرتبات الأمناء في مكتبات المدارس في المدينة المنورة كما تتفاوت في غيرها من المدن الخاضعة لسلطنة الممالك وذلك تبعا لمركز الخازن وسمعته ومهمته، ومقدار ما يسهم به من أعمال فنية وإدارية وغيرها في خزانة الكتب أي المكتبة، وتبعا لريع الوقف بوجه عام، فماننا نرجح أن مرتبات الأمناء قد تراوحت ما بين 50 درهما شهريا ومائتي درهم، هذا إلى جانب ما كان يحصل عليه كل منهم من جوامك أي رواتب نقدية وعينية شهرية تزداد في المواسم وخاصة نصف شعبان وشهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى (88).

خلاصة القول أن الأوقاف التي تم حبسها على المد ارس وخزائن الكتب فيها بل وعلى غيرها من مؤسسات الثقافة في ذلك العصر، قد تعددت مصادرها فمنها ما هو ببلاد الشام وتم وقفها للإنفاق من ريعها على هذه المؤسسات وهي التي اشتهرت في المصادر المعاصرة باسم أوقاف الحرمين الشريفين وخير مثال لنا بأوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين في بلاد الشام أي الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان حسب مصطلح العصر الحديث أغلبها في سورية وهي عبارة عن عدة قرى في أعمال كل من حماء المحروسة وحلب، معرة النعمان وعدة بساتين في الكرك والشوبك في الأردن حالياً، وكذلك أحد الحمامات بالكرك بالإضافة إلى قرية تدعى فرعنا من قرى فلسطين تقع في جنوب شرق مدينة نابلس وتبعد عنها حوالي عشرة كيلومترات تقريباً، وقد حددت وثيقة الوقف أوجه الإنفاق المختلفة في كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة بشكل واضح ومفصل بما يعكس أهمية الوقف في ذلك العصر في الحياة الثقافية والاجتماعية وغيرها (89).

كما وردت إشارة لدى أحد كبار مؤرخي الحجاز في تلك الفترة أن أرباب الوظائف بوجه خاص وهم الذين عرفوا باسم " أهل الصرر " الذين يتلقون رواتبهم في صرر تأتي إليهم من القاهرة، وكانت تصرف لهم من مودع الأيتام أو المودع الحكمي الذي كانت توح فيه أموال الأيتام والغباب، هذه الرواتب كان يتسلمها أحد كبار علماء المدينة أو مكة ويقوم بتوزيعها عليهم ويذكر أن أرباب الصرر ربما قاموا بتسلم رواتبهم منه مقدماً ويفوضونه في قبض رواتبهم عندما تصل هذه الصرر، لذا فرما " حمل الصندوق الحكمي إلى منزله في بعض السنين لاستحقاقه لما فيه، بسبب مداينته للمشار إليهم " هذه الصرر كانت تصل من ريع الأوقاف الحكمية حديثه المخصصة لهم في مصر في ذلك العصر (90) وهي نفسها التي أشار إليها عمدة مؤرخي المملوكي في مصر في "بمصر القاهرة ويلي هذه الجهة قاضي الشافعي وفيها ما حبس على الحرمين الشريفين.. ويقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف... هذا الديوان فيه كتاب وجباه وكانت جهة عامرة يتحصل منها لأهل الحرمين أموال عظيمة في كل سنة من مصر إليهم مع ما يثق به من قاضي القضاة وتفرق هناك " (91) ويؤكد السخاوي أن أموال الصرر هذه كانت تصل إلى أرباب الوظائف المختلفة صغيروهم وكبيرهم في المدينة باستمرار

حتى نهاية العصر المملوكي (92). وينبغي أن نشير إلى أن كثيرا من سلاطين وأمراء المماليك في مصر طوال العصر المملوكي قد خصصوا جزءاً كبيراً من أوقافهم على أهل الحرمين الشريفين، وغالب هذه الأوقاف كانت إما منشآت أو عقارات أو أراضي زراعية وغيرها (93).

هذه المرتبات أو أموال الصرر ظلت طوال العصر المملوكي الأول وكذلك العصر المملوكي الثاني أي عصر الجراكسة بالرغم مما كانت تعانيه مصر من أزمات اقتصادية بسبب استنزاف مواردها الاقتصادية في الحروب الكثيرة التي خاضتها ضد المغول من جهة وضد الصليبيين من جهة أخرى، وفي مواجهة أخطار الحصار الاقتصادي الذي فرضته القوى الأوروبية بعد أن تم طرد الصليبيين من بلاد الشام، وأخيراً ضد الخطر البرتغالي، لكن من الملاحظ أن هذه الأموال لم تتأثر كثيراً إلا في العصر العثماني حيث قل مقدارها " وصار يصرف على حكم الربع أو الخمس لضعف الأوقاف المصرية بالاستيلاء عليها من دخول الأكلة فيها "، أي الأتراك العثمانيين (94).

ولم يكن ما يصل إلى مصر إلى أرباب الوظائف قاصراً على هذه الأموال، بل تشير بعض المصادر المعاصرة إلى أنه كان يصلهم أيضاً " الركب الشريف الكسوة والأردية والهبات " (95) ويوضح لنا أمير ركب الحاج المصري أن هذه الملابس كانت عبارة عن قفاطين خاصة مذهبة ومنها ما هو من الجوخ، بالإضافة إلى بعض الأثواب البعلبكية والسكندرية والفوط من الحرير والمناديل السكندرية (96) أيضاً. كذلك تصلهم مقادير كبيرة من القمح سنوياً يرسلها سلاطين وأمراء المماليك، مثال ذلك ما أشارت إليه بعض المصادر من أن السلطان الظاهر بيبرس " أجرى على أهل الحرمين والحجاز وأهل بدر وغيرهم ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك " (97) وأن السلطان الأشرف قايتباي وقف قرى كثيرة بمصر تحمل غلاتها إلى أهل المدينة المنورة، فيفرق عليهم لكل شخص ما يكفيه من الحب بطول السنة، فكانت حصة كل نفر سبعة أرادب في العام، سوى في ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد، هذا الخير ظل جارياً إلى أواخر العصر المملوكي (98)، إلا أنه في العصر العثماني منع وصول هذا الحب بدليل قول أحد المؤرخين المعاصرين " وإن تصدوا أصحاب هذه الوظائف بشيء في بعض السنين فعلى حد قول الممثل من الشاه أذنفا فالحكم لله العلي الكبير " (99). ويشير السخاوي إلى أن كثيراً من سلاطين المماليك فقد أوقفوا المخازن في

المدينة لتمد أصحاب الجامعات من العلماء وطلبة العلم والقائمين على العمل في المؤسسات الدينية والثقافية وغيرها بل والمجاورين بالخبز، ومن هذه المخازن يذكر لنا "المخبز الأشرفي بالمدينة" والذي تولى الشهاب النشوي القاهري توفي سنة 920هـ وظيفة الكاتب بهذا المخبز (100).

ولم تكن مصر وبلاد الشام فقط هي المصدر الوحيد لهذه الأوقاف في العصر المملوكي، إذ تشير بعض المراجع المعاصرة إلى مصادر أخرى من العالم الإسلامي، فقد جاء في ترجمة الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن عمر بن البنا أنه توجه وكيلا عن شيخ الخدام بالمسجد النبوي الشريف وأهل المدينة في استخلاص أوقافهم ببلاد العجم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة أو التي بعدها (101).

وجاء في نفس المصدر ما يفيد أنه كانت هناك أوقاف عديدة للمسافرة أهل مسوف من بادية المغرب الأقصى حبسها أصحابها على المجاورين في المدينة المنورة وبخاصة من المغاربة (102) ما يذكر لنا المصدر نفسه أن كثيرا ممن تولوا بعض الوظائف الدينية في المسجد النبوي الشريف أو غيرهم وبخاصة من الخدام الطواشية قد أوقفوا الكثير من العقارات والنخيل في أنحاء متفرقة من المدينة ومجاورها على طلبة العلم والعلماء والمؤسسات الثقافية في المدينة المنورة طوال العصر المملوكي (103).

اختيار الكتب وتزويد خزانة الكتب بها:

مما لا شك فيه أن مؤسس المدرسة كان يوقف مجموعة من الكتب على خزانتها مثلما حدث وسبقت الإشارة إليه، هذه المجموعة من الكتب اختلفت في كثرتها وقلتتها حسب مركز الواقف الاجتماعي والمالي، كما أنها اختلفت في نوعها

حسب مذهبه وميوله في جمع الكتب، ومن المرجح أنه كان لخازن الكتب في المدرسة دور في اختيار بعض الكتب وتزويد خزانة الكتب، وكما كان الحال في بعض المدن المملوكية الأخرى وهي مهمة كانت من أهم أركان العمل المكتبي وأخطرها (104).

صفوة القول أن المدارس في المدينة المنورة وغيرها من المؤسسات الثقافية كانت حاملة بكثير من خزائن الكتب الزاخرة بالكتب القيمة والتي أوقفها حكام المسلمين من سلاطين وملوك وأمراء وغيرهم، فقد أوقف السلطان الأشرف قايتباي مجموعة ضخمة من الكتب على مكتبة مدرسته التي أنشأها في المدينة المنورة، وبقيت هذه المكتبة عامرة بالكتب حتى بعد قيام الدولة العثمانية بنصف قرن فقد زارها مؤرخ مكة قطب الدين النهروالي سنة 976هـ حيث قال: " وكان نزولي في خزانة كتب الأشرف قايتباي رحمه الله " (105) وكانت مقتنيات هذه المكتبة في تزايد مستمر وإذ يذكر السخاوي أن مؤرخ المدينة الشيخ السمهودي كان يشرف على هذه المكتبة وعندما قام الأمير داود بن عيسى بن عمر شيخ عرب هواره بصعيد مصر بزيارة المدينة المنورة أثناء حجه وقف عدة كتب مثل كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري سلمها للشيخ السمهودي ليضمها إلى خزانة الكتب في المدرسة الأشرفية (106)، أو بعبارة أخرى أن الهبات والهدايا التي كان يقدمها بعض السلاطين والأمراء والحكام والعلماء وغيرهم كانت إحدى الوسائل الهامة في تزويد خزائنه بنفائس الكتب لينتفع بها بعض الطلبة والمدرسين مما يدل على وجود وعي مكتبي عند الواهبين أو الواقفين في ذلك العصر ولقد أثرى كثير من علماء الأقطار الإسلامية الذين وفدوا على المدينة المنورة أو جاوروا بها زمنا في الحياة الثقافية بما زودوا به خزائن كتب المدارس المختلفة من مؤلفاتهم أو مجموعاتهم الخاصة، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ برهان الدين أبا إسحاق الرواشي نزيل المدينة المنورة (ت755هـ/1354م) والذي " كانت له كتب جليلة في الفقه والأصول والحديث واللغة وغيرها وقف بعضها بالمدرسة الشهابية من المدينة " وكذلك الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي أبا العباس المصمودي المغربي المالكي نزيل المدينة المنورة " ورأيت بخطه على شرح ابن الحاجب لابن عبد السلام: أنه وقفه على المالكية بالمدينة المنورة في السنة المذكورة سنة 702 هـ/1302 م (107).

كذلك كان لكثير من علماء المدينة المنورة دورهم الفعال في تزويد خزائن الكتب بنفائس المؤلفات التي وضعوها في ذلك العصر، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ السمهودي المشرف على خزانة الكتب بالمدرسة الأشرفية قايتباي، والذي وجد في مكتبته وفي غيرها من المكتبات زخيرة من المؤلفات في تاريخ هذه المدينة

الكرامة، فأكتب عليها قراءة واستعناها واستخلصها وحاول يقدم للقارئ خلاصتها، وتم له ذلك من خلال مؤلفاته عن المدينة المنورة، وهو في عمله هذا لم يقف عند حد الاستصفاء أو الاستخلاص والاختصار، بل قام مقام الناقد المحقق الباحث شأنه في ذلك شأن العلماء المحققين الذين لا يقفون عند درجة الجمع، وتقديم النقول، بل يضيفون إلى ذلك ميزة التحقيق والتصحيح والنقد وبيان الوجه الصحيح من غيره وهو لم يكتفي بمصادره التي اعتمد عليها، بل حاول الوقوف على كل ما استطاع الوقوف عليه من الآثار داخل المدينة المنورة وما بقربها من محاولة تقديم صورة واضحة للموقع أو المكان من مختلف النواحي، وهو يستعين في ذلك في بعض الأحوال بما يتخذه علماء الآثار من الوسائل، فهو يسجل ما هو مكتوب وهو يصف نوع البناء للموضع، وهو يحدد المسافات بينه وبين أشهر المواضع المعروفة، وهو يوضح بين ما يذكره بناء على ما شاهده وما يورده من مصادر من خلاف، حسبما يراه صواباً (108). ولم تقف مؤلفاته عند التاريخ للمدينة المنورة، بل ألف في الفقه وفي غيره من العلوم، فقد ذكر له السخاوي أسماء 38 مؤلفاً بين رسالة وكتاب، ومع أن كثيراً من مؤلفاته احترقت إلا أن ما بقي منها يعتبر ثروة قيمة (109).

كما ينبغي أن نشير إلى خزائن الكتب في المدارس المالكية بوجه خاص ضمت الكثير من كتب الأحاديث النبوية وكتب الفقه، وحرص كثير من كبار علماء المذهب المالكي في شتى بقاع العالم الإسلامي على تزويدها بأنفس الكتب من مؤلفاتهم استمرار مثلها مثل مكة المكرمة طوال العصر المملوكي (110).

ومن المرجح أن الحال هو الحال بالنسبة لخزائن كتب مدارس المذاهب الأخرى التي وجدت في المدينة المنورة مستمرة سواء كان ذلك عن طريق المجموعات التي يجسها صاحب المدرسة على خزائنها أو عن طريق الهدايا والهبات أو عن طريق النسخ والشراء، فالمهم أن خزائن الكتب ظلت تحصل على كل جديد من الكتب يتم إصداره في العالم الإسلامي بطوله وعرضه (111). يضاف إلى هذا باب آخر من أبواب التزود بالكتب ألا وهو التركات إذ جرت العادة عند موت أحد كبار العلماء وليس له وريث أن يذهب ما لديه من مجموعات من الكتب إلى المدرسة التي كان يدرس بها حسب وصيته، أما إذا مات وعليه بعض الديون، أو أن يقوم ورثته ببيع ما بحوزته

من كتب فعندئذ كانت تباع بطريقة المزايدة وعادة ما يجتمع نظار الأوقاف على المدارس ضمن من يجتمع من المهتمين بالكتب واقتنائها للمزايدة على شراء هذه الكتب، وفي كثير من الأحيان كان الحاضرون يغالون في أثمان هذه الكتب كسبيل للحصول عليها، وتزويد المؤسسات الثقافية بها (112).

كذلك ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن نوع الدراسة المقررة في المدرسة هي التي كانت تتحكم في اختيار أحسن وأهم الكتب المناسبة لمجموعات المكتبة وكذلك رغبات الواقفين، وربما مطالب المدرسين والمعيدين والطلبة المنزلين بالمدرسة وحاجتهم إلى كتب معينة للبحث والدراسة سواء تم ذلك بواسطة الواقف أو الناظر أو خازن الكتب، وحسب ريع الوقف في كل عام، هكذا كانت الخزائن في المدارس تزود بمختلف الكتب التي تحتاج إليها حتى أن بعضها كان يتكرر منه النسخ لأهميته ولإرضاء القراء (113).

أسواق الكتب:

كان من نتيجة ظهور المدارس بالمدينة المنورة أن وجدت أسواق ومتاجر للكتب كانت تفيض بالحياة والحركة، حيث يفد إليها العلماء وطلاب العلم من كل مكان إما للشراء أو القراءة والاطلاع، من هذه الأسواق سوق الوراقين والتي قام على العمل بها مجموعة كبيرة من المشتغلين ببيع وشراء الكتب في حوانيتهم يساعدهم فيها مجموعة من النساخين الذين ينسخون لهم نواذر الكتب المخطوطة ومجموعة أخرى من الدالين أو سماسة الكتب. وهناك في المصادر التي بين أيدينا بعض الإشارات عن هؤلاء نذكر منها " محمد الحريري البصري الأصل... أدب الأطفال، ثم صار يبيع الكتب، مات في ذي القعدة سنة أربع وخمس وثمانمائة (114) وسعيد بن محمود بن أبي بكر الكوراني " زلال كتب " مات في نصف سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة بالمدينة المنورة " (115).

ولقد لعبت أسواق الكتب هذه دورا بارزا في مجال الكتب والمكتبات طوال ذلك العصر، وإن كانت المصادر التي بين أيدينا قد ضمنت بيان ذلك، إلا أن وجود أمثال تلك الإشارات السابقة وغيرها يمكن أن يفيدنا إلى أنه

في دكاكين هؤلاء الوراقين كان يجلس بعض مثقفي ذلك الزمان لقراءة ما وصل من المؤلفات الجديدة والتي كانت تصل بصحبة أحد العلماء وطلبة العلم من غير الميسورين كان إذا أعجبه كتاب وليس لديه من أموال يدفعه في شرائه ربما لجأ إلى ما كان يلجأ إليه أمثاله من دفع مبلغ من المال زهيد لصاحب دكان الوراقة ليسمح له بالمبيت فيه ومطالعة هذا الكتاب ودراسته (116). وجدير بالذكر أن الأسواق الخاصة بالكتب هذه يمكن القول إنها كانت تشبه ما يقوم عصرنا الحالي من معارض تعرض فيها الكتب بصفة مؤقتة، لكن هذه الأسواق كانت لها صفة الدوام، وكانت مجمعا لأهل العلم والفضل والأدب يترددون عليها، والحقيقة أن تجارة الكتب والوراقة ظلت مزدهرة في هذه الأسواق التي كانت مراكز للنسخ والتجليد أيضا، وذلك تبعا للنشاط الثقافي الكبير الذي شهده العصر المملوكي بشقيه. ويمكن القول أن ازدهار الحياة العلمية في المدينة المنورة في ذلك العصر قد هيا فرصة قيام تجارة نشطة في الكتب لم تكن لتقوم في العصر الوسيط بدون هذه المدارس أو الكليات الجامعية (117).

وقد حددت كتب المعاصرين من الفقهاء لصاحب دكان الوراقة ودلال الكتب الأمور العامة التي يجب أن يسير عليها في معاملاته اليومية إذ كان من حقه " ألا يبيع كتب الدين لمن يعلم أن يضيعها أو ينظرها لانتقادها والطعن عليها، وألا يبيع شيئا من كتب أهل البدع والأهواء وكتب المنجمين والكتب المكذوبة، كسيرة عنتر بن شداد وغيره، ولا يحل له أن يبيع كافرا مصحفا ولا شيء من كتب الحديث والفقهاء " (118).

المكتبات الخاصة ومكتبات العلماء:

لم يقتصر وجود خزائن الكتب على الحرم النبوي الشريف أو المدارس في العصر المملوكي، بل وجدت مكتبات أو خزانات خاصة كثيرة في المدينة المنورة طوال ذلك العصر الذي تميز بالغنى والثراء، إذ تشير كثير من المصادر المعاصرة إلى أنه كان لدى أغلب العلماء والأدباء والفقهاء من سكان المدينة المنورة خزانات كتب حافلة بمختلف المجموعات النادرة والتمينة وأنهم كانوا يتبارون في جمعها والعناية بها عناية جعلتهم ينشئون لها الخزانات المكتبية ويبدلون في جمعها الأموال الكثيرة، ويشير أحد المؤرخين المحدثين إلى أن جمع الكتب واقتنائها كان يملك عليهم شغاف قلوبهم، فلا يهنأ لهم عين ولا يهدأ لهم بال إلا بالعكوف عليها ومسامرتها طوال الليل، كما من

السهل عليهم أن يتحملوا في سبيل الحصول عليها عناء الرحلات الطويلة، ومشاهد التجوال، بل لم يكن غريبا أن تجد أحدهم يقيم مناحة حينما تعذر عليه الحصول على مجلد كتاب (119) ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة التي تدل على مدى الاهتمام بالكتب وتحصيلها.

فمن علماء المدينة المنورة يذكر لنا السخاوي الشيخ ابن الريس ويعرف بأبي الفتح إسماعيل (ت 862 هـ/1457م) فعندما أرسل السخاوي بأحد مؤلفاته إلى المدينة المنورة عقب الانتهاء من تأليفه وهو كتاب " القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم" وقع منه موقعا عظيما وقام بتفريظه وبالغ في ذلك، وأرسل إلى السخاوي بعرفه بأنه مداوم على قراءته، وأن يسمعه لغيره من علماء المدينة وطلاب العلم بها (120). وهذا يعكس لنا مدى حرص علماء هذه البلدة الشريفة على الوقوف على أحدث ما أنتجه علماء الأقطار الإسلامية من مؤلفات، والتعليق عليها ومن علماء المدينة الشيخ شرف الدين أبو الفتح محمد بن أبي بكر المراغي (ت 857 هـ/1453م) أحد كبار مشايخ المدينة المنورة في الفقه والنحو والحديث، جاور بمكة المكرمة زمنا طويلا وتلمذ على يديه كثير من مشاهير علمائها في ذلك العصر " اقتنى جملة من كتب" (121) ومن كبار علماء المدينة المنورة الشيخ العلامة " عبد الله بن حجاج أبو محمد المغربي (ت 710 هـ/1309م) الفيلسفي المنطقي الحكيم... جمع من غرائب الكتب وأنفسها أحمالا، وصرف في تحصيلها وتصحيحها أعمارا وأموالا، وحاز من الأصول الفاخرة صناديق وسلالا وجلها كتب الحديث والفقه والتاريخ والطب والمنطق والحكمة وعلوم أخرى شتى" علي بن أحمد السمهودي (ت 911 هـ/1503م) والذي سكن المدينة المنورة منذ عام 873 هـ/1468م ألف عدة تأليف عن تاريخ المدينة المنورة وفي الفقه وغيرها من العلوم، وحصل كتبها نفيسة احترقت كلها وهو بمكة في سنة 886 هـ/1481م والتي بلغ مجموعها ما يزيد على ثلاثمائة مجلد (122).

وجدير بالذكر أنه منذ بداية العصر المملوكي شهدت بلاد الحجاز بوجه عام والمدينة المنورة بوجه خاص حركة هجرة واسعة النطاق، نتيجة لما ألم بالعالم الإسلامي في الشرق من غزوات المغول من زعزعة كيان كثير من البلدان الإسلامية التي اجتاحتها، وكذلك ما كان يحدث في المغرب العربي وبخاصة بلاد الأندلس تحت اسم ما عرف بحركة

الاسترداد المسيحية وطرده المسلمين، وقد كانت المدينة المنورة لها جاذبيتها الخاصة عند مثقفي ذلك الزمان، وازدادت حركة الهجرة هذه بعد القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد، وأصبح من يسمون بالمجاورين يشكلون ظاهرة يشار إليها بالبنان عند دراسة سكان الحجاز بوجه عام والمدينة بوجه خاص، وامتد مد المجاورين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين (123).

ويهمنا أثر هؤلاء المجاورين في الحياة المكتبية بوجه خاص، والذي انعكس في كثير من النواحي، لعل في مقدمتها شيوع نوع من التأليف وهو ما عرف باسم " التذكرة " وهي كتب يدون فيها العالم أو الأديب ما يحتاج أي بتسجيله دون ترتيب معين ليرجع إليه عند حاجته، ثم أصبحت كتباً تداولها الدارسون، ونقل عنها المؤلفون، والتذكرة تضاف عادة إلى اسم كاتبها فيقال تذكرة العلامة فلان، وشمل النشاط التألفي العلوم العربية والإسلامية من نحو وصرف وأدب وتفسير وحديث وتاريخ وتراجم وغيرها. وكان التركيز على العلوم العربية الإسلامية، وضرب سكان المدينة صفحا عن علوم الفلسفة إلا بعض الأعاجم (124)، ولقد كان للكثير من هؤلاء شغف واضح باقتناء الكتب وتأسيس مكتبات خاصة بهم، نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن محمد الغرناطي نزيل المدينة المنورة الشريفة (ت 754هـ/1353م) والذي استقر مؤذنا بالحرم الشريف وأميناً على الحواصل واشتهر بالعفة والمعرفة وتأثّل بالمدينة مالا فكان يصل به أقاربه... فلما مات وجدوا له مالا طائلا ووقف كتبه وأعتق أرقاؤه " (125). ومنهم الحسن المسوفي التكروري، هاجر إلى المدينة المنورة فجاور بها حتى مات ودفن بالبقيع وكانت مجاورته في عشر الستين وسبعمئة. وكان معتبرا ذا نعمة، محبا في الصالحين والعلماء، واقتنى شيئا من كتب العلم (126).

كذلك نذكر منهم " أيوب المغربي... له مكان موقوف بالمدينة المنورة وقف عليه بعض الكتب سنة سبع وأربعين وثمانمئة " (127) ومنهم أيضا " العالم الشهير الفيروز آبادي صاحب كتاب القاموس المحيط والذي قضى فترة طويلة من حياته في الحجاز متنقلا بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف حتى توفي بها سنة 817هـ/ 1414م " كان قد حوى من الكتب شيئا كثيرا وأذهبها بالبيع وما وجد له بعد موته منها ما كان يظن به " (128).

هناك نقطة هامة وهي أن خدام المسجد النبوي الشريف قد كان لهم ولع كبير في ذلك العصر باقتناء الكتب، نذكر منهم على سبيل المثال " رشيد بن عبد الله شهاب الدين السعيدى، أحد الخدام بالمسجد النبوي الشريف، كان فقيها متدينا متعبدا، يصحب العلماء ويأخذ منهم ويشترى كتب العلم ويوقفها عليهم، وله خزانة جيدة، كان فيها كتب غريبة، أعرضها في دار الزيات، وله رباط ودور، وقفها بعد أن تعب في عمارتها وإنشائها، بحيث كان له من اسمه نصيب، قال ابن فرحون وذكره المجد، فقال.. " وكان مولعا بشراء الكتب المليحة، وكان له خزانة بدار الزيات تحتوي جملة من الكتب العربية الصحيحة وله بالمدينة رباط ودور موقوفة جهلت أماكنها بعد أن كانت معروفة" (129).

وجدير بالذكر أن حب هؤلاء للكتب وإنشاء المكتبات الخاصة لم يقتصر على مجرد الاستحواذ على هذه المؤلفات الثمينة للكثير من علماء العالم الإسلامي، والاطلاع عليها وتقريبها فحسب، إنما تعدى ذلك إلى كتابة كثير من التعليقات والحواشي والإضافات على ما جاء بها من معلومات كانت على جانب كبير من الأهمية لكل من اطلع على هذه الكتب سواء كان معاصرا لهم أو ممن جاء بعدهم وحتى من قام بنشر ذخائرهم فيما بعد محققين ودارسين (130)، كذلك ينبغي أن نشير إلى أن الكثير من هذه المكتبات الخاصة بعلماء ذلك العصر ولم تكن قاصرة على الكتب، بل أنها اشتملت على كثير من المشيخات وهي عبارة عن مجموعة من الكتيبات الصغيرة التي يذكر منها العالم منهم أسماء المشايخ الذين تتلمذ عليهم، وأنواع العلوم المختلفة التي درسها وربما يذكر أيضا سنين الدراسة، والبلاد التي سافر إليها للتحصيل وغير ذلك من الأمور الهامة، كذلك اشتملت مكتباتهم على بعض الإجازات العلمية وهي تشبه الشهادات في عصرنا الحالي، والتي نالوها على أيدي كبار مشايخ ذلك العصر في العلوم المختلفة وفروعها (131).

إن حب هؤلاء للكتب والمكتبات كان قد بلغ حدا يفوق الوصف، لدرجة أن بعض هؤلاء العلماء عندما ينتقل بين الحرمين الشريفين فإنه كان يكتفي بماله في البلد التي يسافر إليها من كتب، ولا يستصحب معه كتباً في سفره، نذكر من هؤلاء نزيل الحرمين الشريفين محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي أبا عبد الله العلامة المفسر

شرف الدين المعروف بابن أبي الفضل المرسي السلمي الذي يحكى عنه " أنه كان له في البلاد التي ينتقل إليها من الكتب بحيث أنه لا يستصحب كتباً بماله من الكتب في البلد الذي يسافر إليها " (132) بل لقد بلغ عدد الكتب النادرة عند بعضهم حداً كبيراً لدرجة أغرت الكثيرين على التنافس على شرائها منه وعرض أعلى الأسعار لها، ولنضرب على ذلك مثلاً بالشيخ محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي المعروف بالوانوغي (ت 819هـ/1416م) والذي " كان حوى كتب كثيرة ودنيا فيها سعة بالنسبة إلى مثله فأذهبها بتسليفها لمن لا يتيسر من كثير خلاص لفقره مع معرفته بحاله، ولكن بحمله على ذلك ما يلتزم له به المتسلف من الربح الكثير، وما حصل له من ذلك إلا اليسير، واتفق له في طلب ذلك ما لا يليق بأهل العلم من كثرة التردد للباعه للمطالبة وإعراض بعضهم عنه فيحال طلبه واتفق له ذلك بالحرمين " (133).

ومما لا شك فيه أن الفضل يرجع إلى هذه المكتبات المختلفة في صيانة وحفظ الكثير منه مخطوطاً، أو مما تشتت في مختلف البقاع حيث لا تزال مكتبات الاستانة تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية القيمة، ونالت المكتبات الأوروبية كثيراً من روائع المخطوطات وغيرها مما تسرب إليها بطريقة أو بأخرى أو مما لا تزال تحتفظ به بعض الأسرات العلمية في المدينة المنورة مما توارثته عبر أجيال مضت على أن وجه الأهمية أن تقرر أن المدينة المنورة طوال العصر المملوكي شهدت حركة مكتبية مزدهرة ساهمت فيها خزائن الكتب سواء في المسجد النبوي الشريف أم الربط والخوانق والزوايا والمدارس وخزائن العلماء بدور فعال، وأنها قد بلغت درجة كبيرة من حسن التنظيم والإدارة ما جعلها تتميز على كثير من مكتبات الغرب الأوروبي، وألقى مكتبات الاستانة وغيرها من المكتبات العالمية الأوروبية تذخر بذخائر الكتب العربية ونفائس المخطوطات الإسلامية التي جعلتها مراكز علمية يتطلع إليها الباحثون منا في نهم وشوق يمزجها غير قليل من الحسرة والآسى على تراث الأجداد العابر (134).

خزائن الكتب في الربط والزوايا والخانقاوات:

ومن الثابت تاريخياً أن خزانة الكتب في المدينة المنورة في عصر سلاطين المماليك لم تلحق بالمسجد النبوي والمدارس بأنواعها فحسب وإنما ألحقت بكثير من بيوت الصوفية والتي عرفت تحت اسم " الزوايا " أو الربط أو

الخانقاوات والتي كانت منتشرة في كثير من أنحاء المدينة المنورة والتحق بها كثير من طلاب العلم ومشايخ العلم حتى بلغ مجموعها حول المسجد النبوي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد أكثر من أربعين رباط (135). فقد أسهمت هذه الأربطة في نشر الحركة العلمية وتلقى فيها طلبة العلم الكثير من العلوم على أيدي علماء أجلاء فمن تلك الأربطة رباط " ذكالة " ويطلق عليه رباط المغاربة وسكنه الكثير من طلبة العلم والعلماء مثل العالم عبد الواحد الجزولي (ت 717هـ/1317م) واشتهر بغزارة علمه في الحديث والقراءات وكان مكبا على العلم ونسخ الكتب بهذا الرباط (136).

وأياضا سعد الله بن عمر بن محمد الشافعي المجاور بالمدينة المنورة وقام بالتدريس في رباط المغاربة، وكان من طلبته النور علي بن محمد بن موسى المتوفى سنة 781هـ/1379م (137). وأيضا رباط الأصفهاني بالمدينة المنورة الذي سكنه الشيخ يوسف بن حسن الزرندي وأثنى عليه ابن فرحون لغزارة علمه وسعة خلقه وحبه للخير (138).

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية المكتبات ودورها الذي لعبته في إثراء الحركة العلمية في العصر المملوكي عن طريق توفير الكتب وأهميتها ونفعها في تثقيف وتعليم أجيال الأمة الإسلامية كما كان لها دور في تنوع المعرفة وتطورها من قبل المدرسين والدارسين كما ساهم الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء الأجلاء ممن اشتغل بمعاينة الكتب ونسخها وإختبارها وبذلك يتضح مدى اهتمام علماء المسلمين وأمرأؤهم وسلطينهم بتوفير خزائن الكتب وما تحتويه من كتب نفيسة في مختلف فنون العلم ووقفها على طلاب العلم حتى تعم فائدتها لجميع المسلمين ويحصل لهم ثواب الدنيا وأجر الآخرة.

الهوامش

1. Thomson: The Medieval library, Chicago 1939 p. 368.

2. الصياد: فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ص 281.

3. رشيد الدين: فضل الله بن عماد الدولة (ت708 هـ)، جامع التواريخ، القاهرة، 1960م، ج1، ص313.

4. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، دار الشعب، القاهرة، 1964م، ص 11.

5. ابن جماعة: بدر الدين محمد بن إبراهيم (ت733 هـ)، تذكرة السامع والمتكلم، حيدر آباد، الدكن، 1938 م، ص193.

6. السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب، ت771 هـ، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948م، ص111، 113.

7. إبراهيم أحمد حسن كفي: المكتبة ودورها في المجتمع، الرئاسة العامة لرعاية البنات، الرياض، 1401هـ، ص 17.

8. إبراهيم أحمد حسن كفي: نفس المرجع، ص 17.

9. إبراهيم أحمد حسن كفي: المكتبة ودورها في المجتمع، ص 17.

10. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص36-37.

11. ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص 47.

12. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمكتبات، القاهرة، 1962م، ص11، ص 15.

13. علي السيد علي: مكتبات القدس في عصر سلاطين المماليك، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، العدد 4، أكتوبر، 1984م، ص 8-9.

14. ابن علي: يحيى بن الحسين بن القاسم (ت1100هـ)، غاية الأمان في أخبار القطر اليماني،

تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، 1968م، ج 2، ص 622.

15. ابن فهد: نجم الدين عمر بن محمد (ت 885 هـ/1480م)، الدر الكمين بذيل العقد الثمين

في تاريخ البلد الأمين، مخطوطة مصورة، جامعة الملك عبد العزيز، 751 تاريخ، ورقة 4.

16. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902 هـ)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة

الشريفة، تحقيق: أسعد طروبزوني الحسيني، القاهرة، 1979م، ج 1، ص 21-22.

17. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 6.

18. سعيد عاشور: مصر معبر الثقافة الإسلامية، دار النهضة العربية الإسلامية، ص 230.

19. التجيبي: أبو القاسم بن يوسف السبتى (ت 730 هـ)، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد

الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م، ص 412، ص 433.

20. ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكناي الأندلسي (ت614هـ)، الرحلة، نشر دار صادر،

بيروت، 1964م، ص 71.

21. ابن رشيد: أبو عبد الله محمد بن عامر الفهري السبتى (ت721هـ)، ملء العيبة بما جمع بطول

الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب

الإسلامي، بيروت، 1988م، ص 30، ص 34.

22. العباسي: الشيخ أحمد بن عبد الحميد (ت القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي)،

عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق: أسعد درابزوني الحسيني، القاهرة، 1975 م، ص 123.

23. ابن رشيد: ملء العيبة، ص 270.
24. ابن رشيد: المصدر السابق، ص 270.
25. العبدري: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 688هـ)، رحلة العبدري المسماه الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، 1968م، ص 102 - ص 107.
26. حمد الجاسر: مجلة العرب، السنة الثانية، ذو الحجة، 1388هـ / آزار مارس، 1969م، ص 513، ص 514.
27. العياشي: عبد الله بن محمد (ت 1090هـ)، مقتطفات من رحلة العياشي ماء الموائد، دار الرفاعي، الرياض، 1404 هـ / 1984م، ج 1، ص 284.
28. السمهودي: نور الدين علي بن أحمد (ت 911هـ)، وفاء الوفا بأخبار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الباز، مكة المكرمة، 1404هـ / 1984، ج 2، ص 99.
29. النهروالي: قطب الدين الحنفي (ت 880 هـ)، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، القاهرة، 1374هـ، ص 239، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 3، ص 410؛ السمهودي، وفاء الوفا، ج 3، ص 643.
30. الطبري: محي الدين علي بن عبد القادر الشافعي الحسني (ت 1070هـ)، الإرج المسكي في التاريخ المكي، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم 1586 تاريخ، ورقة 190.
31. ابن إياس: أبو المحاسن محمد بن أحمد الحنفي (ت 930 هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة، 1965م، 1972م، ص 3، ص 199.

32. السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص441، ص464، عبد اللطيف إبراهيم: وثائق الوقف على

الأماكن المقدسة، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، المجلد الثاني، الرياض، 1979 م، ص253.

33. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص209-210.

34. عبد الله الماجد: المكتبات في جزيرة العرب، السنة الثانية، ربيع الثاني، 1388 هـ/ تموز،

1968م، ص894.

35. النابلسي: عبد الغني بن إسماعيل (ت1143هـ)، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام

والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م، ص420.

36. عبد الله الماجد: المكتبات في جزيرة العرب، ص896-898.

37. عبد الله الماجد: المرجع السابق، ص894.

38. القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت821 هـ)، صبح الأعشى في صناعة

الإنشاء، القاهرة، 1931م، ج1، ص467.

39. ابن دقماق: إبراهيم محمد المصري (ت809 ص)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق،

1893م، ص97.

40. المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،

المسماء بالخطط المقرئية، بولاق، 1275م، ج2، ص399.

41. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص64، ص212.

42. ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،

المكتبة التجارية، بيروت، د.ت، ج 8، ص 7.

43. القلقشندي: صبح الأعشى، ج 1، ص 467.

44. القلقشندي: المصدر السابق، ج 1، ص 467.

45. القلقشندي: صبح الأعشى، ج 1، ص 196.

46. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 38، ص 39.

47. ابن إياس: بدائع الزهور، ج 3، ص 191.

48. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 1، ص 64.

49. السخاوي: المصدر السابق، ج 2، ص 195، ص 196.

50. خطاب عطية: التعليم العالي في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة، 1947م، ص 188.

51. عبد الغني محمود: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، 1968 م،

ص 32.

52. النهروالي: قطب الدين الحنفي (ت988هـ)، البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة،

الرياض، 1387هـ/1967م، ص 13.

53. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 41-42.

54. الفاسي: أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت328هـ)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص 524-525.
55. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 41-42.
56. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 40.
57. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 36-37.
58. ابن جماعة: تذكرة السامع، ص 48، ص 52.
59. ابن جماعة: المرجع السابق، ص 48، 52.
60. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 38.
61. النويري: شهاب الدين أحمد (ت732هـ)، نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب المصرية، دار المعارف، رقم 549، ج 3، ورقة 15.
62. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 38.
63. حمد الجاسر: رسائل في تاريخ المدينة، دار اليمامة، الرياض، 1972م، ص 72.
64. السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 456، ج 2، ص 643.
65. ابن إياس: بدائع الزهور، ج 3، ص 182-183.
66. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 29.
67. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، 1963 هـ، ص 146.

68. محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، 1980م، ص255-256.

69. السبكي: معيد النعم ومبيد النعم، ص111.

70. محمد محمد أمين: المصدر السابق، ص255-256.

71. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، 1353هـ/ 1934م، ج 5، ص 143.

72. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 68.

73. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 70-71.

74. المقرئزي: الخطط، ج 2، ص 8.

75. الفاسي: أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت832هـ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة، 1384هـ، ج 6، ص 57، ص 227، ص 457.

76. السخاوي: الضوء اللامع، ج 9، ص 223.

77. السبكي: معيد النعم ومبيد النعم، ص 131-132.

78. محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص 257.

79. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت852هـ)، الدرر الكامنة في

أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، الدكن، 1348هـ، ج 1، ص 209؛ السخاوي: التحفة اللطيفة،

ج 1، ص 177؛ الضوء اللامع، ج 3، ص 242.

80. السخاوي: الضوء اللامع، ج 9، ص 22.
81. السخاوي: المصدر السابق ج 10، ص 12.
82. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 77.
83. السخاوي: المصدر السابق، ج 1، ص 12.
84. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 77.
85. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 78.
86. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 79، ص 80.
87. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 79، ص 80.
88. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 80.
89. عبد اللطيف إبراهيم: المرجع السابق، ص 80-81.
90. راشد القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1405 هـ، 1406 ص، ص 80، ص 104.
91. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911 هـ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1327، ج 3، ص 165.
92. المقرئزي: الخطط، ج 2، ص 295، ص 296.

93. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 3، ص 77.
94. محمد عبد الستار عثمان: وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار، مكتبة جامعة القاهرة، ص 58، ص 181.
95. الطبري: محمد بن علي بن علي بن فضل (ت 1173م)، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، تحقيق: محمد محمد سليم، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ص 217.
96. عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير آخور كبير قرقجا الحسني، مجلة كلية الآداب، المجلد 18، جامعة القاهرة، 1959م، ص 247.
97. الجزيري: عبد القادر بن محمد (ت 944هـ)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد الجاسر، در اليمامة، الرياض، 1403هـ/1983م، ج 1، ص 345.
98. ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت 874 هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية، 1938م، 1990م، ج 7، ص 110.
99. النهروالي: الأعلام، ص 239.
100. الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ص 154.
101. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 1، ص 175.
102. السخاوي: المرجع السابق، ج 1، ص 688.
103. السخاوي: المرجع السابق، ج 1، ص 174.
104. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص 243، ص 255.

105. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 48.
106. النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 34.
107. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 3، ص 234.
108. السخاوي: المصدر السابق ج 1، ص 113، ص 115، ص 242، ص 243.
109. حمد الجاسر: رسائل في تاريخ المدينة المنورة، ص 32، ص 34.
110. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 3، ص 32.
111. الفاسي: العقد الثمين، ج 2، ص 74.
112. سعيد عاشور: العصر المملوكي، ص 346.
113. الفاسي: العقد الثمين، ج 2، ص 292.
114. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 48.
115. السخاوي: الضوء اللامع، ج 10، ص 102.
116. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص 157.
117. عمر أبو النصر: آثار الجاحظ، 1969م، ص 12-13.
118. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 12-13.
119. السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص 143.

120. عسيلان: عبد الله عبد الرحيم، مكتبة شيخ الإسلام في المدينة وزخائرها، المخطوطة، العرب،

الجزء الثالث، السنة الثالثة، رمضان، 1388هـ، كانون الأول، ديسمبر 1968م، ص 244.

121. السخاوي: الضوء اللامع، ج 8، ص 157.

122. ابن فهد: الدر الكمين، ورقة 31-32، مخطوطة.

123. السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 5، ج 2، ص 625.

124. عائض الرادادي: الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر، مكتبة المدني، جدة،

145هـ/1984م، قسم 1، ص 86.

125. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص 31.

126. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج 1، ص 354.

127. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 1، ص 502.

128. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 1، ص 362.

129. الفاسي: العقد الثمين، ج 2، ص 400.

130. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص 64-65.

131. الفاسي: العقد الثمين، ج 2، ص 96-97.

132. محمد علي العبد: نواذر المخطوطات العربية في مكتبات المدينة المنورة، مجلة العرب، الجزء

التاسع، السنة الثالثة، ربيع الأول، 1389هـ/1969م، ص 802-804.

133. الفاسي: العقد الثمين، ج 2، ص 84.

134. الفاسي: العقد الثمين، ج 1، ص 315.

135. عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية، ص 85.

136. ابن فرحون: عبد الله بن محمد المالكي (ت769هـ / 1367م)، نصيحة المشاور وتعزية المجاور،

تحقيق: حسين محمد شكري، ط 1، المدينة المنورة، 1417هـ / 1996 م، ص 67، السخاوي:

الضوء اللامع، ج 8، ص 88.

137. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج 2، ص 122-223.

138. ابن فرحون: نصيحة المشاور، ص 104-105.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة:

- ابن فهد: نجم الدين عمر بن محمد (ت885هـ)، الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مخطوطة مصورة، جامعة الملك عبد العزيز، 75 تاريخ.
- الطبري: محي الدين علي بن عبد القادر الشافعي الحسني (ت1070هـ)، الإرج المسكى في التاريخ المكى، مخطوطة دار الكتب المصرية، 1586 تاريخ.
- النويري: شهاب الدين أحمد (ت732هـ)، نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، مخطوطة دار الكتب المصرية، رقم 549.

المصادر العربية المطبوعة:

- ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت.
- ابن إياس: أبو المحاسن محمد بن أحمد الحنفى (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة، 1960م - 1972م.
- ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية، 1938م، 1990م.
- ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكنايني الأندلسي (ت614هـ)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1964.

- ابن جماعة: بدر الدين محمد بن إبراهيم (ت733هـ)، تذكرة السامع والمتكلم، حيدر آباد، الدكن، 1938م.
- ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، الدكن، 1348هـ.
- ابن رشيد: أبو عبد الله محمد بن عامر الفهري السبتي (ت721هـ)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجه الوجهين إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار العرب الإسلامي، ط1، ب يروت1408هـ/1988م.
- ابن دقماق: إبراهيم محمد المصري (ت809هـ)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق، 1893م.
- ابن علي: يحيى بن الحسن بن القاسم (ت1100هـ)، غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، 1968م.
- التجيبي: أبو القاسم بن يوسف السبتي (ت730هـ)، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م.
- الجزيري: عبد القادر بن محمد (ت944هـ)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، 1403هـ / 1983م.
- رشيد الدين: فضل الله بن عماد الدولة (ت708هـ)، جامع التواريخ، القاهرة، 1960م.
- السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (ت771هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948م.

- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ):
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق: أسعد طرابزوني الحسني، القاهرة، 1979م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة 1353هـ/1934م.
- السمهودي: نور الدين علي بن أحمد (ت911هـ)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ/1984م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1327هـ.
- العباسي: الشيخ أحمد بن عبد الحميد (توفي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد)، عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق: أسعد طرابزوني الحسني، القاهرة، 1975م.
- العبدري: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت688هـ)، رحلة العبدري المسماه (الرحلة المغربية)، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، 1968م.
- العياشي: عبد الله بن محمد (ت1090هـ)، مقتطفات من رحلة العياشي ماء الموائد، الرياض، 1404 هـ/ 1984 م.
- الفاسي: أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت832هـ):
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتاب العربي، بيروت.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة، 1384هـ.

• القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت 821 هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، 1913م.

• المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت 845 هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المسماه بالخطط المقرئزية، بولاق، 1270م.

• النابلسي: عبد الغني بن إسماعيل (ت 1143 هـ)، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986م.

• النهروالي: قطب الدين الحنفي (ت 988 هـ):

- الإعلام بإعلام بيت الله الحرام، القاهرة، 1374هـ.

- البرق اليماني في العثماني، دار اليمامة، الرياض، 1387هـ / 1967م.

المراجع العربية المطبوعة:

• أبو النصر: عمر، آثار الجاحظ، 1969م.

• أمين: محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980م.

• الجاسر: حمد، رسائل في تاريخ المدينة المنورة، دار اليمامة، الرياض، 1972م.

• الراددي: عائض، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر، مكتبة المدني، جدة، 1404هـ/

1984م.

• الصياد: فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، دار النهضة، بيروت.

• علي: عبد اللطيف إبراهيم:

- المكتبة المملوكية، دار الشعب، القاهرة، 1964م.
- دراسات في الكتب والمكتبات، القاهرة، 1962م.
- وثائق الوقف على الأماكن المقدسة مصادر تاريخ الجزيرة العربية، المجلد الثاني، الرياض، 1979م.

• عاشور: عبد الفتاح:

- مصر معبر للثقافة الإسلامية، دار النهضة العربية.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، 1963م.
- عثمان: محمد عبد الستار، وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار، مكتبة جامعة القاهرة.
- عطية: خطاب، التعليم العالي في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة، 1947م.
- القحطاني: راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين علي الحرمين الشريفين، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1405 هـ-1406 هـ.

- كفي: إبراهيم أحمد حسن، المكتبة ودورها في المجتمع، الرئاسة العامة للبنات، الرياض، 1401 هـ.
- محمود: عبد الغني، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، 1968م.

الدوريات:

- الجاسر: حمد، مجلة العرب، السنة الثانية، ذي الحجة، 1388هـ/ آذار، مارس 1969 م.

- علي: السيد علي، مكتبة القدس في عصر سلاطين المماليك، مجلة المكتبات والمعلومات، العدد 4، أكتوبر 1984م.
- علي: عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسني، مجلة كلية الآداب، المجلد 18، جامعة القاهرة، 1959م.
- الماجد: عبد الله، المكتبات في جزيرة العرب، مجلة العرب، السنة الثانية، ربيع الثاني 1388هـ / تموز 1968م.